السبب في تقسيم الكتاب ضعف جهاز الماسح
فارجو منكم المعذرة ولا تنسوني من دعائكم
وهذا الجزء من الصفحة ٨٨ الى آخر المقرر
اخوكم ابو خالد وليد بن عبد العزيز قسم
الدرسات الاسلامية المستوى الثالث

أما الآيات المدنية فنحن نلحظ طول آياتها [1]، وإذا قارنا حزباً من الأحزاب القرآنية المكية كالحزب الذي فيه سورة الشعراء، وحزباً مدنياً كالذي فيه سورة الأنفال، نجد فارقاً عظيماً في عدد آيات الحزب المكي والحزب المدني.

فعدد آيات سورة الشعراء المكية (٢٢٧) آية، بينما سورة الأنفال (٧٥) آية، وبالاستقراء فإن مجموع الآيات المدنية في القرآن لا يزيد عن ربع مجموع الآيات المكية ومع ذلك فإننا نجد مساحتها في المصحف تزيد عن الآيات المكية زيادة واضحة.

٢- يغلب على السور المكية معالجة قضايا العقيدة، وإقامة الدليل، والدعوة إلى نبذ عبادة الأصنام وخلع المعتقدات الفاسدة. نلحظ ذلك بوضوح في سورة الأنعام، ويونس والفرقان، والشعراء، والقصص.

٣ - كل سورة ذكرت فيها سجدة فهي مكية، وكذلك القصص [redacted]

[redacted]

٤ - كل سورة ورد فيها لفظ (كلا) مكية وقد ذكر هذا اللفظ ثلاثاً وثلاثين مرة في خمس عشرة سورة وكلها في السور الأخيرة في القرآن كسورة اقرأ والمطففين وغيرهما.

٥ - يغلب افتتاح النداء بالآيات المكية بـ: يا أيها الناس ويا بني آدم.

٦ - كل سورة مبدوءة بأحرف التهجي مكية [redacted] وسورة الرعد فيها خلاف.

[redacted]

١ - من المعلوم أن المجتمع الإسلامي قد ظهر في المدينة لأول مرة وقد تعرضت الآيات القرآنية لبناء المجتمع وتأسيسه على أساس الأخوة، لذا نجد أن كل سورة تتحدث عن المهاجرين والأنصار فهي مدنية، كما عنيت الآيات المدنية بفضح المنافقين ومكائدهم وكشف اليهود وتعريتهم على حقيقتهم، فكل سورة ذكر فيها النفاق فهي مدنية [redacted] عدا الآيات الإحدى عشرة الأولى منها فإنها مدنية وهي تتحدث عن

(١) اقرأ إن شئت أطول آية في القرآن على الإطلاق، وهي آية الدَّين في سورة البقرة والتي تبلغ حوالي صفحة من القرآن.

المنافقين، وهكذا فإن كل سورة يذكر فيها أهل الكتاب من يهود ونصارى فهي مدنية أيضاً.

٢ - ولما كانت مرحلة ما بعد الهجرة قد تميزت بقيام الدولة الإسلامية والمكلفة بنشر الإسلام، لذا فكل سورة فيها حكم يعالج قضايا التشريع والأحكام من عبادات ومعاملات ونظام للأسرة فهي مدنية وكل سورة فيها ذكر للجهاد وما يترتب عليه من أحكام دولية كحكم الأسرى والغنائم والسلم والمعاهدة فهي مدنية وقد جاء النفس في هذه الآيات طويلاً ليوائم الموضوع الذي تعالجه.

٣ - ولما تكوّن المجتمع المؤمن المتميز عن المجتمعات الكافرة فناسب أن يكون النداء الموجه من الله عز وجل: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ﴾ وقل أن نجد نداء موجهاً لأهل المدينة مصدراً بيا أيها الناس إلاّ إذا كان في موضوع عام يتناول الناس جميعاً وقد جاء ذلك في سبعة مواضع منها:

(أ) ما جاء في سورة البقرة قوله تعالى: ﴿

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُواْ رَبَّكُمُ . . . ﴾[1].

وقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِى ٱلْأَرْضِ حَلَٰلًا طَيِّبًا . . . ﴾[2].

(ب) ما جاء في سورة النساء: ﴿

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ . . . ﴾[3].

وقوله ﴿ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا ٱلنَّاسُ وَيَأْتِ بِـَٔاخَرِينَ . . . ﴾[4].

(ج) ما جاء في سورة الحجرات قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾ ﴾[5]

(د) وأضاف العلماء إلى ذلك قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ ۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ ﴿١﴾ ﴾[6].

(١) سورة البقرة: آية ٢١.
(٢) سورة البقرة: آية ١٦٨.
(٣) سورة النساء: آية ١.
(٤) سورة النساء: آية ١٣٣.
(٥) سورة الحجرات: آية ١٣.
(٦) سورة الحج: آية ١.

فإنها نزلت ليلاً عند السفر لغزوة بني المصطلق وقد كان ذلك في السنة السادسة للهجرة.

وبعـــد :

فان هذا القول منسوب لابن مسعود «ان ماورد فيه النداء القرآني بـ ﴿ ياأيها الناس ﴾ انه مكي، وماورد النداء في السور بـ ﴿ ياأيها الذين آمنوا ... ﴾ انه مدني.

وقد وقع معه بعض من لا خبرة له في هذا الشأن في التناقض وعدم الفهم لحقيقة مراد الصحابي الجليل عبد الله بن مسعود، فردَّ على هذا القول بأن مَتْنَهُ مجانب للصواب وان سنده أشد ضعفاً [1].

والواقع انه رضي الله عنه يريد ما هو من سور القرآن مشتمل على النداء بـ ﴿ ياأيها الناس ﴾ مع خلو تلك السوره من النداء بـ ﴿ ياأيها الذين آمنوا ... ﴾ فهو مكي.

وما هو مشتمل على النداء بـ ﴿ ياأيها الذين آمنوا ... ﴾ مع خلو السورة من النداء بـ ﴿ يا أيها الناس ﴾ فهو مدني.

وحينئذ يكون قد سكت رضي الله عنه عما يكون مشتملاً على النداءين مجتمعين كسورة البقرة وسورة النساء وسورة الحج مثلاً.

وما تكلم عنه هذا الحبر عبد الله بن مسعود مضطرد لا كلام في متنه ولا سنده وما سكت عنه يحتاج إلى بحث في جعل السوره مكية أو مدنية وذلك بالدليل والقرينة.

* * * *

(١) قاله الزركشي في البرهان في علوم القرآن ١ / ٩٧.

المبحث الثالث

نزول القرآن على سبعة أحرف

طالما شغل هذا الموضوع العلماء - قديماً وحديثاً - قال الطبري : إن الأقوال فيه فاقت الثلاثين قولاً، وأوصلها بعضهم إلى أربعين ونيف، وكلها لم يخل من مقال، وقد أشبع العلماء الأوائل هذه الأقوال نقداً وتفنيداً أذكر على سبيل المثال لا الحصر الإمام الطبري في تفسيره جامع البيان، وابن عطية في تفسيره المحرر الوجيز، والثعالبي في كتابه الجواهر، وابن كثير والنيسابوري والقرطبي وخلائق لا يحصون، كما عني به علماء القراءات كابن الجزري في كتابه النشر في القراءات العشر وقد قال إن هذا الموضوع قد شغله ما يزيد عن ثلاثين عاماً ونيف، ثم قال إن الله هداه إلى ما يمكن أن يكون صواباً، ومع هذا التواضع العلمي لم يصب الصواب.

وفي عصرنا انساق كثير من العلماء وراء أقوال لا تخلو من ضعف ووهن وإن تابع بعضهم بعضاً، وهم- على جلالة قدرهم - مقلدون لمن سبقهم، فقد استحسن الشيخ عبد العظيم الزرقاني رأي ابن قتيبه وابن الطيب والرازي ودافع عنه كثيراً وجاء من بعده متأثرا بهذا الرأي.

ولكي نعطي هذا المبحث حقه من البيان يجدر بنا أن نسوق أولاً الأحاديث الواردة في هذا الموضوع :

١ - عن عمر بن الخطاب يقول : سمعت هشام بن حكيم يقرأ سورة الفرقان في حياة الرسول ﷺ فاستمعت لقراءته فإذا هو يقرأ على حروف كثيرة لم يقرئنيها رسول الله ﷺ فكدْتُ أساوره في الصلاة، فتصبرت حتى سلّم، فلبّبته بردائه، فقلت : من أقرأك هذه السورة التي سمعتك تقرأ؟ قال أقرأنيها رسول الله ﷺ ، فقلت : كذبت، فإن رسول الله ﷺ قد أقرأنيها على غير ما قرأت، وذهبت للنبي ﷺ فقلت إني سمعت هذا يقرأ بسورة الفرقان على حروف لم تقرئنيها، فقال رسول الله ﷺ : «أرسله، أقرأ ياهشام» فقرأ عليه القراءة التي سمعته يقرأ، فقال رسول الله ﷺ : «هكذا أنزلت»، ثم قال : «اقرأ ياعمر» فقرأت القراءة التي أقرأني، فقال رسول الله ﷺ : «هكذا أنزلت، إن هذا القرآن

أنزل على سبعة أحرف فاقرءوا ما تيسر منه»[1].

٢ - عن أبيّ بن كعب قال: كنت في المسجد فدخل رجل يصلي فقرأ قراءة أنكرتها عليه، ثم دخل رجل آخر فقرأ قراءة صاحبه، فلما قضيت الصلاة دخلنا جميعاً على رسول الله ﷺ، فقلت: إن هذا قرأ قراءة أنكرتها عليه، ودخل آخر فقرأ نفس قراءة صاحبه، فأمرهما رسول الله ﷺ فقرأ فحسّن النبي ﷺ شأنهما، فسقط في نفسي من التكذيب ولا إذْ كنت في الجاهلية، فلما رأى رسول الله ﷺ ما قد غشيني ضرب على صدري، ففضت عرقاً وكأنما أنظر إلى الله عز وجل فرقاً، فقال لي: «إنّ ربّي أرسل إليّ أن أقرأ القرآن على حرف، فرَدَدْتُ إليه أن هوِّن على أمتي، فرد إليّ الثالثة اقرأه على سبعة أحرف فَلَكَ بكل ردة رددتكها مسألة تسألنيها، فقلت اللهم اغفر لأمتي، اللهم اغفر لأمتي»[2].

٣ - عن أُبيّ بن كَعب أن النبي ﷺ كان عند أضاة بني غفار قال: «فأتاه جبريل عليه السلام، فقال: إن الله يأمرك أن تقرئ أمتك القرآن على حرف، فقال: اسأل الله معافاته ومغفرته وإنَّ أمتي لا تُطيقُ ذلك، ثم أتاه الثانية، فقال: إن الله يأمرك أن تقرئ أمتك القرآن على حرفين، فقال: اسأل الله معافاته ومغفرته وإن أمتي لا تطيق ذلك، ثم جاءه الثالثة فقال: إن الله يأمرك أن تقرئ أمتك القرآن على ثلاثة أحرف، فقال: أسأل الله معافاته ومغفرته إنَّ أمتي لا تُطيقُ ذلك، ثم جاءه الرابعة، فقال: إن الله يأمرك أن تقرئ أمتك القرآن على سبعة أحرف فأيما حرف قرأوا عليه فقد أصابوا»[3].

٤ - عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: إن الرسول ﷺ قال: «أقرأني جبريل على حرف فراجعته فلم أزل أستزيده، ويزيدني حتى انتهى إلى سبعة أحرف»[4]

٥ - عن حذيفة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «أنزل القرآن على سبعة أحرف»[5].

(١) رواه البخاري ٦ / ١٠٠، ٣ / ٩٠، ٨ / ٥٣. والإمام مسلم ١ / ٥٦٠ وغيرهما.
(٢) أخرجه مسلم في صحيحه ١ / ٥٦٢.
(٣) صحيح مسلم ١ / ٢٦٠.
(٤) صحيح البخاري، ص ٨٠، وصحيح مسلم ١ / ٥٦١.
(٥) أخرجه الترمذي في سننه ٥ / ١٩٤، وقال حديث حسن صحيح.

٦ - عن أُبي بن كعب قال: لقي رسول الله ﷺ جبريل فقال: «ياجبريل إني بعثت إلى أمة أميين منهم العجوز والشيخ الكبير والغلام والجارية والرجل الذي لم يقرأ كتاباً قط، قال: يامحمد إن القرآن أنزل على سبعة أحرف»[1].

ما يستفاد من هذه الأحاديث:

١ - إن الخلاف الذي وقع بين عمر بن الخطاب وهشام بن حكيم إنما هو ناجم عن نطق في هيئات الكلمة القرآنية، كما نزلت على رسول الله ﷺ وكما علَّمها لأصحابه رضوان الله عليهم، تأمل قول عمر وهشام في رواية الحديث: قال عمر: إني سمعت هذا - يعني هشاماً - يقرأ بسورة الفرقان على حروف لم تقرئنيها، وأنت أقرأتني سورة الفرقان، فالخلاف هو في قراءة الكلمات، ومصدره النبي ﷺ فهو الذي أقرأ عُمَرَ، وهو الذي أقرأ هشاماً، وهذه التي علمهم إياها رسول الله ﷺ مصدرها الوحي، فقد قال رسول الله ﷺ مصوباً لكل واحد منهما ومخبراً أن قراءة الآيات من قبلهما بأنها هكذا نزلت وحكم بالصواب لكل قراءة بقوله: «أصبت».

فالأحرف في نطق اللفظ وليس في قراءة القرآن فيما معناه كما يقال، ولا تغيير اللفظ بمرادف.

قال ابن الجزري: (وأما من يقول إن بعض الصحابة كابن مسعود كان يجيز القراءة بالمعنى فقد كذب عليه إنما قال: نظرت القرَّاء فوجدتهم متقاربين فاقرأوا كما عُلمتم)[2].

فلو كانت الأحرف هيَ القراءة بما معناه أو تبديل الكلمة بمرادف لما صح قوله ﷺ: «هكذا نزلت».

٢ - تدلنا هذه الأحاديث بصراحة ووضوح أن المراد بالعدد سبعة هو حقيقة العدد المحصور بين الثمانية والستة وليس المراد به الكثرة.

وقد تاهت أقلام بعض الأقدمين والمحدثين في حقيقة هذا العدد، وقالوا إن المراد به الكثرة لا تحديد العدد سبعة، وقد ذهب إلى ذلك الأستاذ سعيد الأفغاني عميد كلية

(١) رواه أحمد في مسنده ٥ / ٣٩١، والبزار والطبراني وفيه عاصم بن بهدلة، قال الهيثمي وفيه كلام لا يضر والحديث صحيح
(٢) النشر في القراءات العشر.

الآداب في جامعة دمشق وقرر ذلك في مقدمته لكتاب (حجة القراءات لأبي زرعة) وهو رأي قد سبق إليه من الأقدمين كالقاضي عياض ومن تبعه [1].

والذي نراه صواباً هو ما ذكرته الأحاديث السالفة الذكر وهو أن المراد بالسبعة هو حقيقة العدد وليس المراد به الكثرة وهذا ما ذهب إليه أكثر الأقدمين والمحدثين.

قال ابن الجوزي بعد أن ساق كلام الذين يرون أن العدد سبعة يفيد الكثرة، قال: وهذا جيد لولا أن الحديث يأباه[2]، فالروايات واضحة وصريحة أن النبي ﷺ قد راجع جبريل وطلب المزيد حتى بلغ سبعاً، نعم إن الروايات لا تشير بمجموعها إلى أن المراجعة بلغت ستاً بصريح العبارة ولكن لفظ الحديث يدل على أن النهاية قد انتهت وثبتت ووصلت إلى العدد سبعة، ومما يفيد هذا مارواه أبو بكر أن رسول الله ﷺ قال: «فنظرت فسكت - أي جبريل - فعلمت أن العدة قد انتهت»[3].

وهل هناك ما هو أوضح من القول فلم أزل أستزيده ويزيدني حتى انتهى إلى سبعة أحرف.

وهذا الرأي الذي رجحه الأستاذ محيي الدين خليل في بحث مستفيض «كلمتان بين المفسرين والمحدثين وأهل اللغة (سبعة) و (سبعين)»، فقد قرر بعد استعراض شامل وخلص إلى القول:

(إننا نجد أن المعاجم اللغوية على كلمة سواء فيما يختص بالسبعين والسبعمائة وهو أنهما تكررتا في القرآن الكريم والحديث الشريف، والعرب تضعهما موضع التضعيف ولا تريد معناهما اللغوي في كثير من الأحيان، ولكن هذه المعاجم لا تلتقى على كلمة سواء فيما يختص بالسبعة «والسبع» رغم تكرارهما في القرآن والحديث ولغة العرب)[4].

ونحن إذا تمعنا في الأحاديث ونصوصها فإننا نجد أن المراد بالسبعة هو العدد المحصور بين الستة والثمانية، وليس المراد فيه الكثرة في الآحاد.

(١) حجة القراءات، لأبي زرعة، ص ٨ - ٩
(٢) القراءات عند المفسرين، ص ٥.
(٣) سنن النسائي في جامع ما جاء في القرآن ٣ / ١٥٤.
(٤) البحث مطبوع ونشره مركز البحوث في جامعة الملك سعود.

٣ - نلمس من هذه الأحاديث أن نزول القرآن على سبعة أحرف فيه تسهيل وتيسير على الأمة ويدلنا على ذلك مراجعة النبي ﷺ جبريل بأن يسأل ربه التخفيف والمعافاة حتى بلغ ما بلغ من الأحرف السبعة.

٤ - هذه الأحاديث هي عمدة الكلام حول الأحرف السبعة وقد أخترنا الصحيح منها بل المتواتر، وقد ضربنا صفحاً عن ذكر الأحاديث التي لم تصح سنداً فالحديث عنها لا طائل تحته.

هذا ماأردنا التنويه إليه مما يستفاد من الأحاديث حتى يكون عوناً لنا في تحديد المراد فيما بعد.

معنى الأحرف السبعة

* المعنى اللغوي:

الأحرف جمع حرف وقد ورد بمعان كثيرة: حرف الشيء طرفه. والحرف هو أحد حروف التهجي كالألف حرف والباء حرف، والحرف يطلق على الوجه ومنه قوله تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ ﴾[1] يعني أنهم عبدوه على وجه الشك لا على اليقين والتسليم لأمره، قال مجاهد: على شك وهذا علامة على القلق وعدم الثبات كضعف القائم على حرف مضطرب فيه.

وقال الحافظ أبو عمرو الداني إن من معاني الأحرف اللغات يعني أن القرآن أنزل على سبعة أوجه من اللغات وقيل اللغات يعني اللهجات. وعلى هذا فالحرف لغة: [يعني الطرف، واحد حروف التهجي، والوجه واللغة واللهجة].

أما كلمة السبعة فكما سبق أن قلنا إن المراد منها حقيقة العدد المحصور بين الستة والثمانية وليس المراد منها المعنى المجازي.

* المعنى الاصطلاحي للأحرف السبعة:

على الرغم من كثرة الأقوال التي تحدد المعنى الاصطلاحي للأحرف السبعة إلاّ أنه يمكن رد كثير منها وفق قاعدة متفق عليها: «أن كل قول لا يستند إلى أثر ثابت هو

(١) سورة الحج: آية ١١.

مردود أيضاً» مثل قول ابن مسعود المنسوب إلى النبي ﷺ والقائل: (كان الكتاب الأول ينزل من باب واحد وعلى حرف واحد ونزل القرآن من سبعة أبواب على سبعة أحرف، زجر، وأمر، وحلال، وحرام، ومحكم ومتشابه وأمثال»[1].

فهذا القول لم يصح فقد أخرجه الحاكم والبيهقي وليس سنده يصح ولو صح السند لكان حاسماً للنزاع على أنه قد روي عن ابن مسعود قول خلاف ذلك كما قال الطبري.

أو مثل القول: «محكم ومتشابه وناسخ ومنسوخ وخصوص وعموم وقصص». كل هذه الأقوال وأمثالها قد ضربنا عنها صفحاً ولم نتكلف الرد عليها لعدم استنادها إلى الدليل.

وبعد: فنبدأ برأي الطبري الذي استهل به تفسيره الشهير، وقد أطال كثيراً في تحديد المعنى لها وقد وافقه الطحاوي، واستفتح به القرطبي سائر الأقوال - وإن لم يوافقه -.

وقد تأثر بعض المحدثين بقول الطبري كما ظهر في كتاب مباحث في علوم القرآن.

لقد فسر الطبري الأحرف السبعة بأنها سبعة أوجه، ولكنها ليست كالأوجه السبعة التي سيأتيك ذكرها بل أوجه سبعة من المعاني المتفقة والألفاظ المختلفة في الكلمة الواحدة نحو هلُم وأقبل وأسرع وتعال وعجل وقصدي ونحوي وقربي[2].

فلك أن تختار أي لفظ من هذه الألفاظ وهذا معنى التسهيل والتيسير على الأمة، وقد أورد الطبري الحديث أن رسول الله ﷺ قال لأبي بكر: «اقرأ فكلٌ شاف كاف»، إلا أن تخلط آية رحمة بآية عذاب، أوآية عذاب بآية رحمة، على نحو هلم وتعال وأسرع وأقبل ... إلخ.

أو كما روي في حديث أُبيّ بن كعب: (قلت غفوراً رحيماً أو قلت سميعاً حكيماً أو قلت عليماً حكيماً أو قلت عزيزاً حكيماً، أي ذلك قلت فإنه كذلك).

واستدلوا على هذا القول بقراءات مروية عن أعيان الصحابة مثل أبي بن كعب وهو أقرأ الصحابة كما ورد، «اقرؤكم أبي» فقد روي أنه قرأ قوله تعالى: ﴿.... مَّشَوۡاْ فِيهِ ....

(١) جامع البيان ١ / ٢٣، قال السيوطي: حديث ابن مسعود أخرجه الحاكم والبيهقي، الإتقان ١ / ٤٨.
(٢) أنظر مباحث علوم القرآن، للشيخ مناع القطان وكذلك الطبري ١ / ٢٠.

...﴾[1]، أبدلها بقوله: «مروا فيه، سعوا فيه». وقرأ قوله تعالى في سورة الحديد: ﴿... لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱنظُرُونَا ...﴾[2]. قال: (امهلونا، أخرونا، ارقبونا).

أما أنس بن مالك فقرأ قوله تعالى في المزمل: ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيۡلِ هِيَ أَشَدُّ وَطۡـٔٗا وَأَقۡوَمُ قِيلًا ۝٦﴾[3]. قال: (وأصوب قيلاً فقيل له أقْوم فقال وأصْوب وأهْيأ واحد)[4].

أما ابن مسعود فقد أقرّ رجلاً قرأ قوله تعالى:

﴿إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ۝٤٣ طَعَامُ ٱلۡأَثِيمِ ۝٤٤﴾[5].

حين قال طعام الأثيم فقال: (قل طعام الفاجر) هذا قول الطبري وهو فاسد من وجوه كثيرة:

١ - أن الآثار التي أستند إليها في الأحرف السبعة لم يصح منها إلاّ ما أوردناه سابقاً أو ما هو قريب من لفظه ومعناه، أما هذه الروايات فلم تَثْبُتْ عن النبي ﷺ.

٢ - أن الآثار المروية عن الصحابة رضوان الله عليهم على فرض صحتها هي قراءات شاذة لا يعتد بها في الاستشهاد.

٣ - لم يعتبر أحد أن هذه القراءات قرآنية لأنها لم تتواتر وهي قراءات إن صحت على أبعد احتمال فلا تعدو أن تكون قراءة آحاد مخالفة للسواد فلا يعتد بها كما قال أبو حيان.

٤ - على أن العلماء مع اتفاقهم جميعاً دون استثناء على أنها ليست قرآناً قد اختلفوا في اعتبارها حديثاً وهي على أحسن تقدير تفسير صحابي.

٥ - أن القراءة بالمرادف يفتح باب التغيير والتبديل فليس للنبيّ ولا لصحابي أن يبدل اللفظة من بعض هذه الألفاظ من تلقاء نفسه، فإن هذا القرآن المعجز لو حذفت أو أبدلت كلمة منه ثم أُدرت لسان العرب كله على أن تأتي بدلها ما استطعت.

(١) سورة البقرة: آية ٢٠.
(٢) سورة الحديد: آية ١٣.
(٣) سورة المزمل: آية ٦.
(٤) جامع البيان ١ / ١٨، والحديث رواه أبو يعلي والبزار والآية ٦ من المزمّل.
(٥) سورة الدخان: آية ٤٣، انظر تفسير الآية للطبري والقرطبي.

إن كلمة هلم أو أقبل أو نحوي لا يمكن أن تسد مسد كلمة تعال لا في اللفظ وتناسقه وسياقه ولا في أداء المعنى الدقيق لهذه الكلمة.

فهل كلمة هلم وأقبل ونحوي وأسرع ... تسد مسد كلمة تعال؟ أو كلمة أقوم مثل: أهيأ وأصوب، أو كلمة «طعام الفاجر» مثل طعام الأثيم ...

لقد خاض العلماء في ذلك وكتبوا في ذلك تشابه القرآن في آياته بزيادة حرف أو نقص أو بإبدال كلمة مكان كلمة، وقالوا في ذلك عجباً وبينوا الإعجاز الرباني في الإبدال والنقص والزيادة، فكيف يكون قوله عزيزاً حكيماً، مثل عليماً حكيماً ما لم نخلط آية عذاب برحمة أو العكس كما زعموا.

قال أبو بكر الباقلاني: (فلا يجوز للناس أن يبدلوا أسماء الله تعالى في موضع بغيره مما يوافق معناه أو يخالف). إن هذا القول رغم إجلالنا لقائله وهو ابن جرير الطبري إلاّ أنا نقول كما قال علماؤنا: هذا الرجل كبير ولكن الحق أكبر منه، لذا فقد خالفه جماهير العلماء فيما ذهب إليه. ولو أمعن بعض المُحدثين فيما اعترض به على ابن جرير لما ذهبوا مذهبه، بل أوقعتهم ثقتهم بهذا المفسر العظيم حين افتتح كتابه بالحديث عن علوم القرآن، وبحث الأحرف السبعة، وأطال الاستدلال فتوهم هؤلاء بأن رأيه الحق الذي لابديل له.

أما القول الثاني فهو رأي ابن قتيبة وابن الجزري والقاضي ابن الطيب والرازي وابن كثير، وقد قال به كثير من المُحدثين كالزرقاني الذي تابعه كثيرون.

لقد قال هؤلاء جميعاً إن المراد بالأحرف السبعة أوجه سبعة، وهي لا تخرج عن سبعة أوجه في الاختلاف[1].

الأول: اختلاف الأسماء من إفراد وتثنية وجمع، وتذكير وتأنيث مثاله قوله تعالى ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَـٰنَـٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ﴾[2] لامنتهم بالافراد، ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَـٰنَـٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ﴿٨﴾ ﴾ لاماناتهم بالجمع.

(١) النشر في القراءات العشر ١ / ٢٧.
(٢) سورة المؤمنون: آية ١٩.

الثاني: اختلاف تصريف الأفعال من ماضٍ، ومضارع، وأمر مثاله قوله تعالى ﴿ رَبَّنَا بَـٰعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا ﴾[1] «ربنا بَعِّدْ بين اسفارنا».

الثالث: اختلاف في وجوه الاعراب، مثاله: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ بَرِىٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُۥ﴾[2] ورَسولُهُ بالضم، ورسولَه بالفتح.

الرابع: الاختلاف بالنقص والزيادة، مثاله: ﴿ وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ﴾[3] والذكر والأنثى بنقص لفظ وما خلق، ونحو «أوصى» «ووصى» بنقص حرف الهمزة.

الخامس: الاختلاف في التقديم والتأخير، مثاله: ﴿ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ﴾[4] بمعنى مقتول وقاتل، أو ﴿ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ﴾ بمعنى قاتل ومقتول، وكلاهما موعود بالحسنى وبالجنة، ومثاله: ﴿وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ﴾[5] «وجاءت سكرة الحق بالموت».

السادس: الاختلاف بالإبدال وهو قسمان: إبدال حرف قريب المخرج بحرف قريب مثله ﴿ وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ ﴾[6] «وطلع منضود». والثاني: إبدال كلمة بكلمة ﴿ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ ﴾[7] كالصوف المنفوش بدل العهن.

السابع: اختلاف اللهجات كالفتح والإمالة والترقيق والتفخيم وغير ذلك.

وإذا تأملت هذه الأوجه فإنها لا تخلو من نقد، وهي أوجه فيها نظر من نواحٍ كثيرة. فالأمثلة القرآنية هي روايات آحادية لا تثبت قرآنيتها كما يقول أبو حيان «رواية آحاد مخالفة للسواد فلا يعتد بها»[8] فقوله «وجاءت سكرة الحق بالموت» وقوله «والذكر والأنثى» بدل «وماخلق الذكر والأنثى» وقوله «كالصوف المنفوش» بدل «العهن المنفوش» كل ذلك لم يثبت رواية ولم يصح سنداً.

(١) سورة سبأ: آية ١٩.
(٢) سورة التوبة: آية ٣.
(٣) سورة الليل: آية ٣.
(٤) سورة التوبة: آية ١١١.
(٥) سورة ق: آية ١٩.
(٦) سورة الواقعة: آية: ٢٩.
(٧) سورة القارعة: آية ٥.
(٨) تفسير البحر المحيط ٨ / ٤٨٣.

ثم إن المتأمل لهذه الأوجه لا يلمس وجه الحكمة والتسهيل على أمة محمد ﷺ في مثل هذه الأوجه.

المعنى الثالث:

الأحرف السبعة هي لغات سبع [1] متفرقة في القرآن وهي لغات أحياء من قبائل العرب مختلفة نزل بها القرآن الكريم على النبي ﷺ وكان يأمر كتبة الوحي وهم من قبائل شتى من قريش وغيرها بكتابته، وقام عثمان بن عفان وأمر الكتبة حين كتابة القرآن إذا اختلفوا في شيء أن يكتبوه بلغة قريش، ومعنى ذلك أن القرآن منه ما قرئ بلغة قريش، ومنه ما قرئ بغيرها كما ثبتت عن النبي ﷺ، وهذا ماسبّب اختلاف الصحابة في قراءة القرآن، فمن سمع النبي ﷺ يقرأ القرآن على وجه فإنه يقرأه على هذا الوجه، ومن سمع النبي ﷺ يقرأ القرآن على وجه آخر فإنه يقرأ على الوجه الذي سمعه كذلك، وربما سمع أحدهم ما لا يسمعه الآخر فينكر عليه، فحين قرأ هشام الفرقان أنكر عليه عمر ذلك لأنه لم يسمعها من النبي ﷺ.

فالأحرف السبعة كلها مسموعة عن النبي ﷺ وقد نزل بها الوحي.

أما إنها لغات سبع فلما روي عن عثمان أنه أمر كتبة الوحي إن أختلفوا مع زيد بن ثابت في كتابة شيء من القرآن أن يكتبوه بلغة قريش، لأنها اللغة الشائعة فهي أحق من غيرها إذا وقع الاختلاف. فلغة قريش إذن معها لغات أخرى.

إن تفسير الأحرف السبعة باللغات السبع يلمس فيه وجه التخفيف والتسهيل، فالقبيلة قد تعتاد لهجة معينة يسهل عليها النطق بها ويصعب عليها النطق بغيرها، وفي نزول القرآن بهذه اللغات يسهل على أصحاب كل لهجة القراءة القرآنية على نحو ما اعتاد عليه نطقه، ورفع الحرج عن من لم يعتد عليه نطقاً، وعلى الأخص الشيوخ والنساء والأطفال وهذا ما يبين وجه الحكمة في قوله ﷺ: «إن أمتي فيها الشيخ الفاني والعجوز الكبير والغلام». ثم قوله ﷺ: «إني بعثت إلى أمة أميين فيهم الشيخ...».

(١) القرطبي ١/ ٣٨ - ٣٩.

وقد يعترض على هذا القول فأي اللغات السبع تريد والعرب قبائل شتى؟ هل هي قريش وثقيف وهذيل وهوزان وكنانه وتميم أو غيرها.

وما هو الدليل على تعيين هذه اللغات أو اللهجات السبع التي نزل بها القرآن علماً بأن القبائل العربية كثيرة ولهجاتها لا تعد.

أقول: إن الأحرف السبعة هي لغات سبع أشتهرت شهرة بين العرب ولم يعينوا من هم، ولكنها سبعة على أية حال قد عرفنا لغة قريش على وجه التأكيد بل منهم من يرى أنها سبع لغات من لغات قريش. أورده النيسابوري في تفسيره قائلاً: أكثر العلماء على أنها سبع لغات من لغات قريش لا تختلف ولا تتضاد بل هي متفقة المعنى ثم يقول: وغير جائز عندهم أن يكون في القرآن لغة لا تعرفها قريش. ذلك أن قريشاً تجاور البيت وكانت العرب تأتي إليهم للحج ويستمعون لغاتهم ويختارون من كل لغة أحسنها كلاماً واجتمع لهم ذلك العلم بلغة غيرهم [1].

أما الألسن فلا حاجة بنا إلى معرفتها، وقد قيل: إن خمسة منها لعجز هوازن واثنين منها لقريش وخزاعة، وروي ذلك عن ابن عباس وليست الرواية عنه من رواية من يجوز الاحتجاج بنقله وذلك أن الذي روى عنه أن خمسة منها من لسان العجز من هوازن هو الكلبي عن أبي صالح، وأما الذي روى عنه أن اللسانين الآخرين لسان قريش وخزاعة فهو قتادة، وقتادة لم يلقه ولم يسمع منه [2]، فهذه روايات لم يصح سندها فلا يعول عليها أما رواية الكلبي فهي من أوهى الطرق عن ابن عباس وهي كما يقول علماء الحديث سلسلة الكذب.

أما الرواية عن قتادة فلا تقبل لأنها عنعنة المدلس، قال الطبري: إن قتادة لم يلق ابن عباس ولم يسمع منه [3].

وعلى كل حال فاللغات السبع لم ترد على سبيل التحديد ولكن لغة قريش واحدة على وجه التأكيد.

(١) في مقدمة الغرائب للنيسابوري.
(٢) المزهر، للسيوطي ١/ ٢١٠.
(٣) جامع البيان ١/ ٦٦.

وقد يعترض على ذلك أيضاً أن عمر بن الخطاب قد اختلف مع هشام بن حكيم في قراءة القرآن وهما قرشيان ولغتهما واحدة ولهجتهما واحدة فالخلاف وقع بينهما وهما من قبيلة واحدة، فلو كان الأمر كما زعمت أن الأحرف هي اللغات لم تصح دعواك.

ويجاب على ذلك أن قراءة القرآن على لغة قريش لا يعني الاقتصار عليها. فقد يكون هشام بن حكيم القرشي قد سمع القرآن بلغة أو بلهجة أخرى فلما قرأها باللغة الأخرى استنكرها عمر لأنه لم يسمعها كما سمعها هشام بل الأمر كذلك حسب الرواية أن هشام كان يقرأها على حروف كثيرة كما وردت، على أن هشام لم ينكر على عمر بل الذي وقع منه الإنكار عمر، لأنه لم يسمع القراءة التي قرأها هشام، والتي ربما كانت قراءة إضافية عما قرأها عمر.

وبعد: فقد آن لنا أن نتساءل حول إشكال وقضية في نهاية هذا البحث أما الإشكال فناجم عن الأحرف السبعة والقراءات السبع.

وهل هما من المترادفات وان كل واحد منهما يعني الآخر سواء بسواء، أو هما غير ذلك.

فالجواب: إنهما قطعا حقيقتان متغايرتان مختلفتان وإن تداخلتا تداخلاً طفيفاً.

أما وجه التغاير والإختلاف فالحرف غير القراءة كما بينا أما وصف الاثنين بالسبعة، فالسبعة الأولى أي الأحرف السبعة ربانية المصدر حتى بعددها، فالقرآن نزل على سبعة أحرف ابتداء، أما السبعة التي هي وصف للقراءات فهي اصطلاح عند علماء القراءات، فابن مجاهد رأى أن أشهر القراء سبعة، وهذا ما أوقع في الإشكال.

أما وجه التداخل فهو أن الأحرف السبعة ربانية كما بينا والقراءات السبع وإن كانت منسوبة إلى القراء السبعة إلاّ أنها ليست من وضعهم بل هم قرأوها كما نزل بها الوحي السماوي، وكما سمعت عن النبي ﷺ لذا فقد عرفها العلماء بأنها اختلاف ألفاظ الوحي كما نطقها النبي ﷺ.

وأخيراً فقد عقد القرطبي فصلاً في مقدمة تفسيره وقال: هذه القراءات السبع التي تنسب للقراء السبعة ليست هي الأحرف السبعة التي اتسعت الصحابة في القراءة بها،

فالقراءات هي اختيارات أولئك الأئمة السبعة [١].

قال أبو شامة: ظن قوم أن القراءات السبع الموجودة الآن هي التي أريدت في الحديث وهو خلاف إجماع أهل العلم قاطبة وإنما يظن بعض الجهال [٢] وبهذا الكلام رفع الإشكال.

أما القضية فهي هل القرآن الكريم الذي بين أيدينا يحوي الأحرف السبعة؟ وهل أمر عثمان بن عفان بكتابة الأحرف السبعة أو أنه أمر بإهمال ستة منها والإبقاء على حرف واحد.

قبل الإجابة نبادر أولاً بتقرير حقيقة لا مجال للشك فيها عند الفريقين المختلفين في وجود الأحرف السبعة، هذه الحقيقة مسلم بها عند كلا الفريقين، ألا وهي أن القرآن الكريم الذي بين أيدينا اليوم لا نقص فيه ولا زيادة على ما جمعه عثمان بن عفان وبعث به إلى الأمصار، وإن ما صنعه عثمان كان بإجماع الصحابة رضوان الله عليهم، والزاعمون بالنقص لآيات أو سور هم مارقون في دين الله تعالى أينما كانوا وأينما وجدوا.

إنما الخلاف بين العلماء في وجود الأحرف السبعة أو عدم وجودها وهل يشتمل عليها القرآن الكريم الذي بين أيدينا أو لا يشتمل.

أقول: إن مرد هذا الخلاف راجع إلى تحديد المراد بالأحرف السبعة. فالقائلون بأنها أوجه سبعة كما سبق بيانها، والقائلون بأنها سبع لغات من لغات أو لهجات القبائل العربية، هؤلاء جميعا قالوا بوجود الأحرف السبعة في القرآن الكريم فالأوجه السبعة المذكورة بأمثلتها موجود منها ما هو متواتر في المصاحف المتعددة التي نسخها عثمان وبعث بها إلى الأمصار.

وقد احتج هؤلاء بالإجماع من قبل الصحابة على ما فعله عثمان الذي نسخ القرآن من المصحف عينه الذي كان موجوداً عند حفصة، وهو المصحف عينه الذي كان موجوداً عند أبي بكر، وهو عين المصحف الذي كتب أمام رسول الله ﷺ على الأحرف السبعة التي نزل بها القرآن والتي عرضها النبي ﷺ مرتين في رمضان على جبريل عليه السلام.

(١) الجامع لأحكام القرآن ١ / ٤٨.
(٢) اللآلئ الحسان، ص ١٨٣.

الرحمة والتخفيف الذي فتحه الله لأمة الإسلام مخالفين في ذلك هدي الرسول عليه الصلاة والسلام في عمله للتخفيف بطلب تعدد الحروف، وعلاجه للنزاع بين المختلفين بتقرير هذا التعدد للحروف؟.

إلاَّ أن هذه ثغرة لا يمكن سدها، وثلمة يصعب جبرها، وإلاَّ فكيف يوافق أصحاب رسول الله ﷺ على ضياع ستة أحرف نزل عليها القرآن دون أن يبقوا عليها مع أنها لم تنسخ ولم ترفع؟ وعلى حين أن الرسول ﷺ قرر بقوله وفعله، أنه لا يجوز لأحد أيا كان أن يمنع أحداً أياً كان من القراءة بحرف من السبعة أياً كان. فقد صوب قراءة كل من المختلفين وقال لكل: «هكذا أنزلت» وضرب في صدر أُبيّ بن كعب حين استصعب عليه التسليم بهذا الاختلاف في القراءة.

وقصارى القول، أننا نربأ بأصحاب الرسول ﷺ أن يكونوا قد وافقوا أو فكروا، فضلاً عن أن يتآمروا على ضياع أحرف القرآن الستة دون نسخ لها.

وحاش لعثمان رضي الله عنه أن يكون قد أقدم على ذلك وتزعمه، وكيف ينسب إليه هذا؟

والمعروف أنه نسخ المصاحف التي جمعت على عهد أبي بكر رضي الله عنه قبل أن يدب النزاع في أقطار الإسلام بسبب اختلاف حروف القراءة في القرآن. فكانت تلك الصحف محتملة للأحرف السبعة جميعاً، ضرورة أنه لم يحدث وقتئذ من النزاع والشقاق ما يدعو إلى الاقتصار على حرف واحد في رأيهم، ولم يثبت أن الصحابة تركوا من الصحف المجموعة على عهد أبي بكر حرفاً واحداً فضلاً عن ستة أحرف ولو كان ذلك لنقل إلينا متواتراً، لأنه مما تتوافر الدواعي على نقله.

ثم كيف يفعل عثمان رضي الله عنه ذلك وهو الذي عرف أن علاج الرسول لمثل هذا النوع الذي دب في زمانه، كان بجمع الناس وتقريرهم على الحروف السبعة لا بمنعهم عنها كلاً ولا بعضاً.

ثم كيف يفعل عثمان ذلك، وتوافقه الأمة، ويتم الإجماع؟ ثم يكون خلاف في معنى الأحرف السبعة مع قيام هذا الإجماع؟

أي كيف تجمع الأمة على ترك ستة أحرف وإبقاء حرف واحد ثم يختلف العلماء في معنى الأحرف السبعة على أربعين قولاً، ويكادون يتفقون - رغم خلافهم هذا - على أن الأحرف السبعة باقية، مع أن الإجماع حجة عند المسلمين، وبه ينجلي ظلام الشك عن وجه اليقين.

ولنفرض جدلاً أن نزاع المسلمين في أقطار الأرض أيام خلافة عثمان رضي الله عنه، قضى عليه أن يجمع المسلمين على حرف واحد في القراءة، فلماذا لم تسمح نفسه الكريمة بإبقاء الستة الأحرف الباقية للتاريخ لا للقراءة، مع أن الضرورة تقدر بقدرها، وهذه الستة أحرف لم تنسخ لا تلاوة ولا حكماً حتى تذهب بجرة قلم كذلك، ثم يبخل عليها بالبقاء للتاريخ وحده في أعظم مرجع، وأقدس كتاب، وهو القرآن الكريم[1].

* * * *

(١) مناهل العرفان ص ١٦٩ - ١٧٠.

الثانية قراءة عاصم بحذف الهمزة (اقرا يقرا كسعى يسعى)، وأنه لأمر يسترعي الانتباه أن تكون أول كلمة في أول سورة نزلت كلمة اقرأ وأن يكون القرآن والقراءات مشتقاً من مشتقاتها.

بعد هذا التمهيد أرى أن الحديث عن مصدر القراءات هو الحاسم لكثير من الشبه والأضاليل التي يتمسك بها المستشرقون والتي كان لأقوال بعض المفسرين وبعض العلماء قدر غير يسير في الإسهام في مد أولئك الملحدين بشيء من أسباب الضلالة من غير قصد منهم رحمهم الله لما لم يلزموا جانب الحيطة والحذر وأقصى غايات الحذر في هذا الأمر الجلل، فقد أمدوا - من حيث لا يشعرون - من في قلبه مرض واستعداد طبيعي لاتخاذ كل شاردة وواردة من القول صيداً ثميناً، وفرصة ذهبية للنيل من مقدسات هذه الأمة وقرآنها.

أقول: إن المصدر الوحيد للقراءات إنما هو الوحي النازل من السماء إلى النبي عليه الصلاة والسلام الذي بلّغه بكل دقة وبكل حركة إلى أصحابه الكرام، فكان يقرئهم إياه كما أنزل كما روى ابن مسعود أن النبي ﷺ كان يقرئهم العشر فلا يجاوزونها إلى عشر أخرى حتى يتعلموا ما فيها من العلم والعمل، فإذا ما علمهم القرآن، فأتقنوا تلاوته، أحبّ أن يسمعه منهم توثيقاً لما سمعوه عنه.

روى البخاري ومسلم عن ابن مسعود - رضي الله عنه - قال: قال لي رسول الله ﷺ: «اقرأ عليَّ القرآن»، فقلت: يا رسول الله أقرأ عليك وعليك أُنزل، قال: «إني أحب أن أسمعه من غيري»، فقرأت عليه سورة النساء ... حتى إذا جئت إلى هذه الآية:

﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍۭ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾﴾[1].

قال: «حسبك الآن»، فالتفت إليه فإذا عيناه تذرفان. فالنبي ﷺ كان يتعهد أصحابه بتعليم القرآن وحفظه حتى أصبحت صدورهم سجلاً لما نزل من الحق، وربما علّم النبي - عليه الصلاة والسلام - بعض أصحابه قراءة لم يسمعها بعض أصحابه، فيقرأ بعضهم القرآن على القراءة التي سمعها، ويقرأ آخر على قراءة غيرها سمعها من النبي ﷺ، فيسمع أحدهما الآخر فينكر عليه عدم سماعه لها من الرسول ﷺ.

(١) سورة النساء: آية ٤١، والحديث في صحيح البخاري. كتاب تفسير القرآن. باب «فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد. الآية»، ومسلم في صحيحه، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب فضل استماع القرآن، وطلب القراءة من حافظ للاستماع، والبكاء عند القراءة والتدبر ١ / ٥٥١.

ففي البخاري ومسلم أن عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - قال: سمعت هشام بن حكيم يقرأ سورة الفرقان في حياة النبي ﷺ فاستمعت لقراءته فإذا هو يقرؤها على حروف كثيرة لم يقرئنيها رسول الله ﷺ، فكدت أساوره في الصلاة، فانتظرته حتى سلّم، ثم لببته بردائه أو بردائي، فقلت من أقرأك هذه السورة؟ قال: أقرأنيها رسول الله ﷺ، قلت له: كذبت، فوالله إن رسول الله ﷺ أقرأني هذه السورة التي سمعتك تقرؤها، فانطلقت أقوده إلى رسول الله ﷺ فقلت يا رسول الله: إني سمعت هذا يقرأ بسورة الفرقان على حروف لم تقرئنيها، وأنت أقرأتني سورة الفرقان فقال رسول الله ﷺ: «أرسله يا عمر، اقرأ يا هشام» فقرأ هذه القراءة التي سمعته يقرؤها، قال رسول الله ﷺ: «هكذا نزلت» ثم قال: «إن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف فاقرءوا ماتيسر منه»[1].

وروى مسلم عن أبي بن كعب قال: «كنت في المسجد فدخل رجل يصلي فقرأ قراءة أنكرتها عليه، ثم دخل آخر فقرأ قراءة سوى قراءة صاحبه فلما قضينا الصلاة دخلنا جميعاً على رسول الله ﷺ فقلت: إن هذا قرأ قراءة أنكرتها عليه، ودخل آخر فقرأ قراءة سوى قراءة صاحبه، فأمرهما رسول الله ﷺ فقرآ، فحسّن النبي ﷺ شأنهما...»[2] الحديث.

فمن حديث عمر وهشام رضي الله عنهما يتبين لنا أن تعدد القراءات سببه واحد هو أنّ رسول الله ﷺ اقرأ كلاً منهما على قراءة، وكلتا القراءتين أنزلت من عند الله تعالى.

ومن حديث أبي بن كعب - رضي الله عنه - أن عدد القراءات ثلاث وكلها حسنها رسول الله ﷺ لأنها متلوة من الوحي، جعلها الله من باب التهوين والتسهيل على أمته.

يقول الشيخ الزرقاني: -رحمه الله - ثم إن الصحابة - رضوان الله عليهم - قد اختلف أخذهم عن رسول الله ﷺ، فمنهم من أخذ القرآن عنه بحرف واحد، ومنهم من أخذه عنه بحرفين، ومنهم من زاد، ثم تفرّقوا في البلاد وهم على هذه الحال، فاختلف

(١) صحيح البخاري. كتاب فضائل القرآن. باب أنزل القرآن على سبعة أحرف، ومسلم في صحيحه. كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب بيان أن القرآن على سبعة أحرف، وبيان معناه ١ / ٥٦٠.
(٢) صحيح مسلم. كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب بيان أن القرآن على سبعة أحرف ١ / ٥٦١.

سبب ذلك أخذ التابعين عنهم وأخذ تابعي التابعين وهلم جرا، حتى وصل الأمر على هذا النحو إلى الأئمة القراء المشهورين الذين تخصصوا وانقطعوا للقراءات يضبطونها ويعنون بها وينشرونها[1].

إذن فالأمر في تعدد القراءات أمر أخذ ونقل من الوحي فلا يجوز لمسلم أن يعزو أيّة قراءة لغير ذلك، كما صنع المستشرق (جولد زيهر) وغيره من المستشرقين الذين عزوا القراءات إلى القارئين الذين مارس كل واحد منهم القراءة القرآنية ليصحح القرآن، وأن القارئ يقرأ وفق ما يحتمله الرسم القرآني الخالي من النقط والشكل.

يقول جولد زيهر: (وترجع نشأة قسم كبير من هذه الاختلافات - أي في القراءات - إلى خصوصية الخط العربي الذي يقدّم هيكله مقادير صوتية مختلفة، تبعاً لاختلاف النقط الموضوعة فوق هذا الهيكل أو تحته، وعدد تلك النقاط، بل كذلك في حالة تساوي المقادير الصوتية يدعو اختلاف الحركات الذي لا يوجد في الكتابة العربية الأصلية ما يحدده، إلى اختلاف مواقع الإعراب للكلمة، وبالتالي إلى اختلاف دلالتها، وإذاً فاختلاف تحلية هيكل الرسم بالنقط، واختلاف الحركات في المحصول الموحّد القالب من الحروف لم يكن منقوطاً أصلاً، أو لم تتحر الدقة في نقطة أو تحريكه[2].

وقد أرجع الدكتور عبد العال سالم أساس هذا الزعم إلى الزمخشري وقال: إن مصدر الوحي لهذا المستشرق جولد زيهر إنما هو الزمخشري الذي قال بخطأ ابن عامر في قراءته للآية القرآنية[3].

فقد زعم الزمخشري أن الذي حمل ابن عامر على قراءته أنه رأى في بعض المصاحف (شركائهم) مكتوباً بالياء، والسبب هو الرسم. اهـ.

أقول: ونحن إذ نضع في الاحتمال أن يكون للزمخشري أثر في قول زيهر إلاّ أننا نجزم أن مراد كل منهم يختلف عن الآخر إذ يهدف زيهر للوصول إلى قياس تعدد القراءات على تعدد الأناجيل وهذه خطيئة مانظن أن الزمخشري يقع في مثلها.

(١) مناهل العرفان ١/ ٤٠٦.
(٢) مذاهب التفسير ص ٨.
(٣) أثر القراءات القرآنية في الدراسات النحوية ص ٢٥.

وفي ضوء دراسة هذه الردود يمكن إيجازها في الأمور التالية:

أولاً: إن الاعتماد في نقل القرآن على حفظ القلوب والصدور لا على خط المصاحف والكتب، فإن القراءات وجدت قبل مرحلة تدوين المصاحف وكتابتها، وبعد تدوينها كانت في البداية غير منقوطة ولا مضبوطة الشكل ومع ذلك كانت القراءات معروفة ومنتشرة وكانوا يقرأون الآيات حسب السماع والرواية لا حسب الرسم والكتابة.

ثانياً: لو كانت القراءة تابعة للرسم لصحت كل قراءة يحتملها رسم المصحف، ولكن الأمر على غير ذلك، فإن بعض ما يحتمل الرسم صحيح مثل (فتثبتوا) في قول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا ضَرَبْتُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُواْ...﴾[1] الآية.

وبعضه مردود مثل قراءة حماد الراوية (أباه) في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ...﴾[2] الآية.

وكذلك قراءة: «يستكثرون» في قوله تعالى: ﴿... قَالُواْ مَآ أَغْنَىٰ عَنكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٨﴾﴾[3].

وهذه وتلك قراءة منكرة بالاتفاق فليست من السبع ولا الأربع عشرة ولو كان مجرد الخط والرسم كافياً لاعتمدت.

وعلى مثل هذه القراءات المنكرة اعتمد جولد زيهر في الاستدلال على قضيته الباطلة ودعواه الخبيثة ضد القرآن الكريم.

ثالثاً: لقد ثبت بالتاريخ الصحيح أننا لا نزال نرى الكثير من المقرئين حتى يومنا هذا يعطون تلاميذهم بعد أن يتموا حفظه على أيديهم إجازة تتضمن سند التلقي المتصل عنهم إلى النبي ﷺ وأن كثيراً من الأسانيد الصحيحة المتصلة مدونة محفوظة في كتب القراءات فما ينكر هذا إلاّ جاهل أو مكابر.

(١) سورة النساء: آية ٩٤.
(٢) سورة التوبة: آية ١١٤.
(٣) سورة الأعراف: آية ٤٨.

كذلك إذا نظرنا إلى الأمصار الإسلامية وجدنا أن كل مصر التزم قراءة قارئ بعينه مع احتمال رسم المصحف لهذه القراءة، وأن القراء انتشروا في هذه الأمصار ليعلموا الناس قراءة القرآن إيماناً منهم بأن المصحف وحده لا يغني شيئاً في مجال القراءة وبخاصة أنه مجرد من النقط والشكل.

يقول الشيخ الزرقاني لذلك اختار عثمان حُفَّاظاً يثق بهم وأنفذهم إلى الأقطار الإسلامية، واعتبر هذه المصاحف أصولاً ثواني مبالغة في الأمر وتوثيقاً في القرآن وجمع كلمة المسلمين، فكان يرسل إلى كل إقليم مصحفه مع من يوافق قراءته في الأكثر الأغلب، روي أن عثمان - رضي الله عنه - أمر زيد بن ثابت أن يقرأ بالمدني، وبعث عبد الله بن السائب مع المكي، والمغيرة بن شهاب مع الشامي، وأبا عبد الرحمن السلمي مع الكوفي، وعامر بن عبد القيس مع البصري [1].

فلو كان الاعتماد على المصحف لما كلف أمير المؤمنين نفسه بإرسال أولئك القراء إلى تلك الأمصار، وملاحظة أن اختيار القارئ كان موافقاً لرسم المصحف المرسل إلى ذلك البلد، وهذا يؤكد أن دعامة قراءة القرآن هي التلقي والرواية.

وإذا كان للمستشرقين عذرهم في تعصبهم للباطل وحقدهم الدفين ضد الإسلام ومبادئه، فما عذر من جاراهم من المسلمين وقال: بأن القراءات القرآنية منشؤها الخط العربي حسب رسمها في المصحف العثماني ومن هؤلاء الدكتور على عبد الواحد وافي [2]، وتبعه في ذلك الدكتور طه حسين في صورة أكثر بشاعة وأشد خطراً إذ هو ينكر على المعتقد بشرعية القراءات وأنها ليست من الوحي وإنما مصدرها اللهجات واللغات.

يقول طه حسين: والحق أنه ليست هذه القراءات السبع من الوحي في قليل ولا كثير وليس منكرها كافراً ولا فاسقاً ولا مغتمزاً في دينه، وإنما هي قراءات مصدرها اللهجات واختلافها [3].

(١) المناهل ١/ ٩٦.
(٢) فقه اللغة ص ١١٩.
(٣) الأدب الجاهلي ص ٩٦.

وقد نهج الدكتور محمد عبد السلام كفافي نهج طه حسين فقال: وهناك سبب قوي لظهور القراءات لأن مصحف عثمان كتب بغير نقط ولا شكل [1].

والحق الذي لا يماري فيه أن القراءات سنة متبعة نقلت بالرواية والمشافهة من فيّ رسول الله ﷺ وهي قرآن لا تنفك عنه، وهي ليست مغايرة له بل هي ألفاظ مختلفة نزل بها الروح الأمين بعرضات متعددة، ولم تكن القراءات وليدة خط أو رسم أو عدم شكل وضبط لكتاب الله تعالى ومن يقول بهذا فهو ضال مضل لسوء نيته وخبث قصده سواء كان (جولد زيهر) أو من سار على دربه، والذي يمعن النظر في كلام زيهر مثلاً يجد له أبعاداً وأهدافاً، وقد استوفيناه في بحث خاص بالقراءات، نشر في مجلة البحوث الإسلامية بالرياض، العدد (٣٥)، ويحول منهج الدراسة عن الكلام بأكثر مما قلناه.

أركان القراءات: صحة السند فقط

يجدر التنويه لأمر، وهو أن ركن القراءة الوحيد هو صحة السند لا غير وأن إضافة الركنين الأخيرين لم يأت إلاّ في وقت متأخر كما ذكره الاستاذ سعيد الأفغاني في تحقيقه لكتاب حجة القراءات لأبي زرعة وقد وصف السفاقسي اشتراط غير صحة السند بأنه قول محدث لا يعول عليه.

بعد هذا التنويه والتنبيه نقول: إن كان الحديث عن القراءات ومعناها قد كثر فيه الخلاف والاختلاف بين أئمة هذا العلم، فإن الحديث عن أركانها أكثر اختلافاً. فبعضهم يشترط لقبول القراءة أركاناً ثلاثة، ومنهم من يكتفي بركنين، ومنهم من يقتصر على ركن واحد، والقائلون بالأركان الثلاثة يتفاوتون في الأخذ بكل ركن منها، وسأضع بين يديك هذه الأركان كما نظمها أحد أئمة هذا الشأن شعراً فقال:

فكل ما وافق وجه نحو ... وكان للرسم احتمالاً يحوي
وصح إسناداً هو القرآن ... فهذه الثلاثة الأركان
وحيثما يختل ركن أثبتا ... شذوذه ولو أنه في السبعة [2]

(١) في علوم القرآن ص ١٠٧.
(٢) من منظومة ابن الجزري في كتابه النشر.

فهذه الأركان الثلاثة وسأبدأ بأهمها بل المجمع على اشتراطه ألا وهو :

١ - صحة السند :

هذا أول الأركان المعتبرة بل هو الذي يستهل به العلماء حديثهم عن أركان أو شروط القراءات .

فابن مجاهد شيخ هذه الصنعة إذ هو أول من سبع السبعة قد قال : (والقراءة التي عليها الناس بالمدينة ومكة والكوفة والبصرة والشام هي القراءة التي تلقوها عن أوليهم تلقيناً ، وقام بها في كل مصر من هذه الأمصار رجل ممن أخذ عن التابعين أجمعت الخاصة والعامة على قراءته ، وسلكوا فيها طريقه وتمسكوا بمذهبه) [١] ، فلايمكن اعتبار القراءة القرآنية إلاَّ إذا كانت قد أخذت بطريق التلقي والمشافهة ، وهذا ما يؤكده في موضع آخر إذ يقول : (فهؤلاء سبعة نفر من أهل الحجاز والعراق والشام خلفوا في القراءة التابعين وأجمعت على قراءتهم العوام من أهل كل مصر من هذه الأمصار .

فابن مجاهد يشترط لقبول القراءة صحة السند وإلى ذلك ذهب جمهور العلماء المحققين كابن شنبوذ والإمام أبو الحسن البغدادي وابن خالويه ومكي بن أبي طالب والإمام الكواشي والإمام أبو شامة) [٢] .

ولم يشذ عن إجماع هؤلاء العلماء إلاَّ محمد بن يعقوب المتوفَّى سنة ٣٥٤هـ . فإنه لم يشترط السند واكتفى بقبول القراءة بشرطين : موافقة الرسم وموافقة اللغة العربية ، وأسقط صحة السند ، وفي ذلك يقول ابن الجزري : « وله « أي المذكور » اختيار في القراءة رويناه في الكامل وغيره رواه عنه أبو الفرج الشنبوذي ويذكر عنه أنه كان يقول : إن كل قراءة وافقت المصحف ووجها في العربية فالقراءة بها جائزة وإن لم يكن لها سند) [٣] .

والحق أن هذه هفوة من الهفوات التي لا يرتضيها شرع ولا عقل وهي من أفسد

(١) كتاب السبعة ، ص ٤٩ .
(٢) المرشد الوجيز ، ص ١٨٠ .
(٣) غاية النهاية ، لابن الجزري ٢ / ١٢٤ .

الأقوال ، فالقراءات قد تزداد وتنقص وفق احتمال موافقتها للغة أو للرسم القرآني ، وبالتالي فهي وفق هوى واجتهاد أئمة اللغة وليس الامر كذلك .

٢ - موافقة القراءة للرسم العثماني :

ذهب كثير من العلماء المتأخرين إلى اعتبار هذا الشرط وقد ذكره أبو الفرج الشنبوذي أول الشروط المعتبرة إذ يقول : إن كل قراءة وافقت رسم المصحف ووجها في العربية فالقراءة بها جائزة .

ويفهم مما ورد في [كتاب السبعة في القراءات] عدم إشتراطه إذ يقول : (فمن حملة القرآن المعرب العالم بوجوه الإعراب والقراءات ، العارف باللغات ومعاني الكلمات ، البصير بعلم القراءات المنتقد للآثار ، فذلك الإمام الذي يفزع إليه حفاظ القرآن في كل مصر من أمصار المسلمين) [١] .

فهذا الكلام يدلنا على شرطين لا ثالث لهما : وهما صحة السند وموافقة العربية وأسقط موافقة الرسم وذهب إلى ذلك الإمام أبو الحسن البغدادي شيخ القراء بالعراق فأسقط موافقة القراءة للرسم العثماني .

وقد توسع بعض العلماء في موافقة القراءة للرسم العثماني ، فرأى احتمال الموافقة كافياً ، بل توسع بعضهم فرأى موافقة القراءة للرسم وحده وإن لم تتواتر .

ونحن إذ نرد القراءة التي لم توافق الرسم إلاَّ أننا لا نقبلها لمجرد موافقتها الرسم .

٣ - موافقة القراءة للغة :

ابتدأ بذكره صاحب النشر فجعله أول الشروط ، وثنى بذكره مكي بن أبي طالب والإمام الكواشي وجعله ثاني الشروط بعد صحة السند ، وقد قيد كل منهم هذا الشرط بقيد يختلف عن الآخر ، فبينما يكتفى الكواشي بشرط موافقة القراءة للغة لأي وجه من الوجوه ، نرى مكي بن أبي طالب يشترط أن يكون وجهه في العربية التي نزل بها القرآن شائعا .

(١) كتاب السبعة ، ص ٤٥ .

وذهب أبو الفرج الشنبوذي إلى تأييد رأي الكواشي في التساهل والاكتفاء بموافقة القراءة لأي وجه من الوجوه اللغوية سواء أكان الوجه فصيحا مجمعا عليه أم كان مختلفا فيه اختلافا لا يضير مثله كما يقولون[1].

نظرة في الأركان :

لو تأملنا هذه الأركان لوجدناها أركاناً تخضع لاستقراء العلماء واستنباطهم فمنهم من جعلها ركنا واحدا، ومنهم من جعلها ركنين مع اختلاف في تحديد الركنين، ومنهم من جعلها ثلاثة أركان وأضاف الموافقة للغة، وفي كل شرط خلاف، ففي السند: من العلماء من ذهب إلى اشتراط التواتر ومنهم من اشترط الشهرة، ومنهم من اكتفى بصحة السند ولو نقل آحادا.

وفي موافقة الرسم: منهم من اشترط الموافقة تحقيقاً ومنهم من قبلها ولو تقديراً أو احتمالاً، وفي موافقة اللغة كلام استوفيناه في موضعه.

والذي لاشك فيه بل المجمع عليه هو صحة السند بل أرى أنه الركن الوحيد الذي ينبغي أن يقتصر عليه، والذي أعنيه بصحة السند ليس مجرد الصحة بل التواتر، ذلك لأن القرآن كله متواتر لا يشك في ذلك مسلم من المسلمين، وقراءته يتعبد بتلاوتها المؤمنون، وقراءاته المختلفة لا ضير بالاكتفاء ببعضها لأنها كلها قرآن فأرجلكم من قوله تعالى :

﴿ . . . وَٱمْسَحُوا۟ بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ . . . ﴾[1] قرآن.

وأرجلكم بالكسر في الموضع نفسه قرآن، و ﴿مَالِكِ يومِ الدِّينِ﴾ إن قرأت بهذه القراءة قرآن، و ﴿مَلِكِ يومِ الدِّينِ﴾ قرآن، إن شئت قرأت بهذه أو بتلك. فالقراءة قرآن يتعبد بتلاوتها فلابد من تواترها لإثبات قرآنيتها.

أما القراءة التي لم تتواتر سنداً فلا تعتبر قراءة مهما أضفت إليها من معايير وشروط، وقد أخطأ من حكم بقرآنيتها إذا وافقت الرسم ووافقت اللغة، وأنزلها منزلة التواتر في السند.

إن التواتر لا يكون إلاّ بالسند الذي يرويه جمع عن جمع . . . إلخ إذا وضح عندنا

(١) سورة المائدة : آية ٦.

صحة اعتبار تواتر السند فلا ضير علينا في الركنين الأخيرين، لأنه لم يثبت لدينا أن قراءة من القراءات المتواترة قد خالفت الرسم القرآني، أو خالفت العربية، ودع عنك ما يقال إن بعض القراءات القرآنية المتواترة قد خالفت العربية كما زعموا في قوله تعالى :

﴿ . . . وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ . . . ﴾[1].

بالكسر أو قراءة ﴿ فتوبوا إلى بارئكم ﴾[2] بالتسكين فإن كلام النحاة الذين خالفوا كلام القراء لا يستند إلى دليل.

أعود لأقول إن شرط القراءة أو ركنها الوحيد هو صحة السند وتواتره ولا ثاني له والله أعلم.

يقول الأستاذ سعيد الأفغاني : (والشرط الأساسي كما يظهر للمتأمل هو الأول أي صحة السند، أما الثاني والثالث فالغالب أنهما أضيفا ليتكون من الثلاثة ما ينطبق تمام المطابقة على القراءات العشر المعروفة، ثم أضاف أن أول وأشهر من عرف عنه اشتراط الشروط الثلاثة هو (مكي بن أبي طالب) الذي عاش في المائة الخامسة للهجرة منذ قال : (والقراءات الصحيحة ما صح سندها إلى رسول الله ﷺ وما صح وجهها في العربية، ووافقت خط المصحف، وشاع هذا القول بعده حتى تبعه في ذلك بعض المتأخرين، ومشى عليه ابن الجزري في نشره وطيبه واستنكر الجمهرة ذلك. حتى قال السفاقسي: وهذا قول محدث لا يعول عليه).

أشهر القراء من الصحابة :

المشهورون من الصحابة بإقراء القرآن هم : عثمان، وعلي، وأبي بن كعب، وزيد بن ثابت، وابن مسعود، وأبو الدرداء، وأبوموسى الأشعري، وسائر أولئك الذين أرسلهم عثمان بالمصاحف إلى الآفاق الإسلامية.

أشهر القراء من التابعين :

بالمدينة المنورة : ابن المسيب وعروة، وسالم، وعمر بن عبد العزيز، وسليمان بن

(١) سورة النساء : آية ١.
(٢) سورة البقرة : آية ٥٤.

يسار وأخوه عطاء، وزيد بن أسلم، ومسلم بن جندب، وابن شهاب الزهري، وعبدالرحمن بن هرمز، ومعاذ بن الحارث المشهور بمعاذ القارئ.

بمكة المكرمة : عطاء، ومجاهد، وطاووس، وعكرمة، وابن أبي مليكة، وعبيد بن عمير، وغيرهم.

بالبصرة : عامر بن عبد القيس، وأبو العالية، وأبو رجاء، ونصر بن عاصم، ويحيى بن يعمر، وجابر بن زيد، والحسن، وابن سيرين، وقتادة وغيرهم.

بالكوفة : علقمة، والأسود، ومسروق، وعبيدة، والربيع بن خيتم، والحارث بن قيس، وعمر بن شرحبيل، وعمرو بن ميمون، وأبو عبد الرحمن السلمي، وزر بن حُبَيْش، وعبيد بن فضله، وأبو زرعة بن عمرو، وسعيد بن جبير، والنخعي والشعبي.

بالشام : المغيرة بن أبي شهاب المخزومي صاحب مصحف عثمان، وخليد بن سعيد صاحب أبي الدرداء وغيرهما.

ثم تفرغ قوم للقراءات يضبطونها ويعنون بها، فكان بالمدينة أبو جعفر يزيد بن القعقاع ثم شيبة بن نصاح ثم ناصح بن أبي نعيم.

وكان بمكة : عبد الله بن كثير، وحميد بن قيس الأعرج ومحمد بن محيصن.

وكان بالكوفة : يحيى بن وثاب، وعاصم بن أبي النجود، وسليمان الأعمش ثم حمزة ثم الكسائي.

وكان بالبصرة : عبد الله بن أبي إسحاق وعيسى بن عمر وأبو عمرو بن العلاء، وعاصم الجحدري، ثم يعقوب الحضرمي.

وكان بالشام : عبد الله بن عامر، وعطية بن قيس الكلالي، وإسماعيل بن عبد الله بن مهاجر، ثم يحيى بن الحارث الذماري، ثم شريح بن يزيد الحضرمي، وقد لمع في سماء هؤلاء القراء نجوم عدة مهروا في القراءة والضبط حتى صاروا في هذا الباب أئمة يرحل إليهم ويؤخذ عنهم.

القراء السبعة وغيرهم :

لا يفوتنا أن نذكر إليك القراء السبعة الذين عناهم ابن مجاهد الذي هو أول من

سبَّعَهُم، كما نذكر القُرَّاء العشرة الذين عناهم ابن الجزري في كتابه النشر في القراءات العشر ثم نذكر الأربعة المتممين للأربعة عشر.

القراء السبعة :

١ - نافع : هو أبو رويم نافع بن عبد الرحمن بن أبي نعيم المدني. أخذ القراءة عن أبي جعفر القارئ وعن سبعين من التابعين الذين أخذوا عن عبد الله بن عباس وأبي هريرة، وعن أبي بن كعب عن رسول الله ﷺ، وانتهت إليه رياسة الإقراء بالمدينة المنورة، توفي سنة ١٦٩هـ.

وأشهر تلاميذه قالون وورش.

٢ - ابن كثير : هو أبو محمد أو أبو معبد عبد الله بن كثير الداري، كان إمام الناس في القراءة بمكة. لقي من الصحابة عبد الله بن الزبير وأبي أيوب الأنصاري وأنس بن مالك. وروى عن مجاهد عن ابن عباس عن أبي بن كعب عن رسول الله ﷺ وقرأ على عبد الله بن السائب المخزومي، وقرأ عبد الله هذا على أبي بن كعب وعمر بن الخطاب وكلاهما قرأ على رسول الله ﷺ وتوفي سنة ١٢٠ هـ.

وأشهر تلاميذه البزي وقنبل.

٣ - أبو عمرو البصري : هو أبو عمرو زبان بن العلاء بن عمار البصري. روى عن مجاهد بن جبر وسعيد بن جبير عن ابن عباس عن أبي بن كعب عن رسول الله ﷺ، قرأ على جماعة منهم أبو جعفر وزيد بن القعقاع والحسن البصري، وقرأ الحسن على حطان وأبي العالية، وقرأ أبو العالية على عمر بن الخطاب، توفّي أبو عمرو سنة ١٥٤ هـ.

وأشهر تلاميذه إسماعيل بن جعفر ومالك بن أنس.

٤ - ابن عامر الشامي : هو عبد الله اليحصبي يكنى أبا نعيم وأبا عمران، وهو تابعي لقي واثلة بن الأسقع والنعمان بن بشير، وقد أخذ القراءة عن المغيرة بن أبي شهاب المخزومي عن عثمان بن عفان عن رسول الله ﷺ، وقيل إنه قرأ على عثمان نفسه، توفي بدمشق سنة ١١٨ هـ.

٥ - **عاصم الكوفي** : هو أبو بكر عاصم بن أبي النجود الأسدي، قرأ على زر بن حبيش وعبد الله بن مسعود على رسول الله ﷺ وقرأ أيضاً على أبي عبد الرحمن عبد الله بن حبيب السلمي معلم الحسن والحسين، وقرأ عبد الرحمن على الإمام علي وأخذ الإمام عليّ قراءته عن رسول الله ﷺ، توفي عاصم بالكوفة سنة ١٢٧هـ.

٦ - **حمزة الكوفي** : هو أبو عمارة حمزة بن حبيب الزيات الكوفي مولى عكرمة بن ربيع التميمي، قرأ على أبي محمد سليمان بن مهران الأعمش على يحيى بن وثاب على زر بن حبيش على عثمان وعلي وابن مسعود على النبي ﷺ، توفي بحلوان سنة ١٥٦هـ.

٧ - **الكسائي الكوفي** : هو أبو الحسن علي بن حمزة الكسائي النحوي لقب بالكسائي لأنه كان على الدوام لابساً «كساء»، قال أبو بكر الأنباري: اجتمعت في الكسائي أمور، كان أعلم الناس بالقرآن، فكانوا يكثرون عليه حتى يضطر أن يجلس على الكرسي ويتلو القرآن من أوله إلى آخره، وهم يسمعون منه ويضبطون عنه، توفي سنة ١٨٩هـ.

تمام القراء العشرة :

٨ - **أبو جعفر المدني** : يزيد بن القعقاع القاري نسبة إلى موضع بالمدينة يسمى «قارا». أخذ عن عبد الله بن عباس وأبي هريرة، وعن أبي بن كعب عن رسول الله ﷺ، توفي سنة ١٣٠هـ.

٩ - **يعقوب البصري** : هو أبو محمد يعقوب بن إسحاق الحضرمي قرأ على أبي المنذر سلام بن سليمان الطويل، وقرأ سلام على عاصم وعلى أبي عمرو، توفي بالبصرة سنة ٢٠٥هـ.

١٠ - **خلف البزار** : أبو محمد خلف بن هشام بن ثعلب البزار البغدادي، قرأ على سليم عن حمزة، وعلى يعقوب بن خليفة الأعشى وعلى أبي زيد سعيد بن أوس الأنصاري صاحب المفضل الضبي، وعلى أبان العطار، وهم عن عاصم، توفي سنة ٢٢٩هـ ببغداد.

تمام القراء الأربعة عشر :

١١ - **الحسن البصري** : هو السيد الإمام الحسن يسار أبو سعيد البصري الغني بشهرته عن تعريفه توفي سنة ١١٠ هـ.

١٢ - **ابن محيصن** : هو محمد بن عبد الرحمن السهمي المكي مقرئ أهل مكة مع ابن كثير توفي سنة ١٢٣هـ.

١٣ - **يحيى اليزيدي** : هو يحيى بن المبارك بن المغيرة، الإمام أبو محمد العدوي البصري المعروف باليزيدي توفي سنة ٢٠٢ هـ.

١٤ - **الشنبوذي** : محمد بن أحمد بن إبراهيم بن يوسف بن العباس بن ميمون أبو الفرج الشنبوذي البغدادي توفي سنة ٣٨٨ هـ.

هؤلاء الائمة العظام هم الذين خدموا الأمة والملة، وحافظوا على الكتاب ونسأل الله تعالى أن يغمر الجميع بواسع رحمته وأن يجزيهم أحسن الجزاء على خدماتهم لدين الله وكتابه.

حكم ما وراء العشرة :

وقع الخلاف في القراءات الأربع بعد العشر - فقيل إن المسألة ليست مسألة أشخاص ولا أعداد، بل هي قواعد ومبادئ فأيما قراءة تواترت سنداً فهي مقبولة وإلاّ فهي مردودة لا فرق بين قراءات القراء السبعة والقراء العشرة والقراء الأربعة عشراً وغيرهم[1].

* * * *

(١) انظر ترجمة القراء في المهذب والنشر وغيرهما .

المبحث الخامس

أسباب النزول

لمحة تاريخية سريعة عن هذا العلم

يُعتبر شيخ البخاري علي بن المديني [1] رحمه الله أول من دون كتاباً في هذا العلم، وتلاه علماء[2] آخرون لم يصلنا شيء من كتبهم إلاَّ ما ذكره الواحدي والسيوطي عنهم، وبقي هذا العلم غير مدون ولا مجموع حتى(طالعنا أبو الحسن علي بن أحمد الواحدي)[3] المتوفى سنة ٤٦٨ بكتابه المشهور(أسباب النزول)وهو خير الكتب المصنفة في هذا الفن رغم ما فيه من أعواز وأخطاء تاريخية، وروايات ضعيفة ورد أغلبها عن طريق الكلبي التي هي من أوهى الطرق عن ابن عباس رضي الله عنهما، وهي طريق سلسلة الكذب كما يطلق عليها علماء الحديث كما اشتمل كتابه على روايات لا تمت إلى أسباب نزول الآية بصلة. وكان المأمول من العلماء من بعده أن يجردوا كتابه من تلك الأخطاء وأن يسدوا ما فيه من أعواز، بيد أن الذين أتوا من بعده لم يفعلوا شيئاً من ذلك، فإبراهيم الجعبري[4] لم يفعل شيئاً إلاَّ تجريد كتابه من الأسانيد التي ذكرها الواحدي، ولم يضف إلى ذلك شيئاً يذكر، وقد تحدث في مقدمته قائلاً :

نزول القرآن على قسمين : قسم نزل ابتداء، وقسم نزل عقب واقعة أو سؤال، ثم أخذ يسرد كتاب الواحدي سرداً لم نحظ منه بتعليق يسير عليه.

وممن ألف في هذا العلم أبو الفرج - ابن الجوزي - المتوفى سنة ٥٩٧ هـ. وكتابه « أسباب نزول القرآن »، ثم جاء ابن حجر العسقلاني المتوفى سنة ٨٥٢ وكتب كتابه « العجاب في بيان الأسباب »[5].

(١) علي بن المديني شيخ البخاري المتوفى سنة ٢٣٤ هـ.
(٢) وممن ألف في ذلك أبو المطرف عبد الرحمن بن محمد القرطبي المتوفى سنة ٤٠٢ هـ.
(٣) هو أبو الحسن علي بن أحمد النحوي المفسر، توفي سنة ٤٢٧ هـ.
(٤) هوبرهان الدين إبراهيم بن عمر المتوفى سنة ٧٣٢هـ. وقد ألف في علوم القرآن «روضة الطرائف في رسم المصاحف»، وشرح الشاطبية في القراءات في كتابه كنز المعاني.
(٥) مخطوط بالمدينة المنورة - جامعة الإمام محمد بن سعود - والنسخة مصورة عن نسخة مراكش.

ذكر السيوطي أنه مات عنه مسودة وكان يذكرها كثير من العلماء في عداد المفقودات ولكنها ظهرت أخيراً إلاَّ أن هذه المسودة ليست كاملة فقد كتب ما يزيد عن أربعمائة صفحة من القطع الكبير ووصل في ذكر أسباب النزول إلى الآية الثامنة والسبعين من سورة النساء أي حتى قوله تعالى : ﴿ أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ . . . ﴾ [1].

ومن خلال اطلاعي على المسودة وجدتها ليست مثل كتابه فتح الباري، بل سود صفحات كثيرة في أشياء لا تمت إلى سبب النزول بصلة، مثل ذكره عن كوكب الزهرة بأن الزهرة هي امرأة جميلة ثم حدث ما حدث إلى أن رفعت إلى السماء ... وقد أطال في هجومه على من ضعفوا وردوا هذه الرواية، والكلام في ذلك يطول ولا مجال لذكره.

ثم جاء السيوطي واعداً بأن يكون كتابة «لباب النقول في أسباب النزول» من خير الكتب المصنفة في هذا الشأن، وقال مادحاً كتابه : «إنني ألفت فيه أي - في أسباب النزول - كتاباً حافلاً موجزاً محرراً لم يؤلف مثله في هذا النوع، سميته «لباب النقول»، لقد أثنى على نفسه بشيء من المبالغة، في حين أن كتاب الواحدي بقي خيراً منه، وكان الأولى به أن يجمع مزاياه، ويكمل ما رآه ناقصاً، ويسد ما فيه من أعواز كما قال ،وهذا ما جعل محقق الكتاب - الأستاذ سيد صقر - يقول : (اللباب مصنوع من الأسباب).

وأخيراً فإن آخر كتب المتقدمين كتاب إرشاد الرحمن في أسباب النزول والمتشابه والتجويد [2] لمؤلفه عطية الله بن برهان الأجهوري المتوفى سنة ١١٧٠ وهو كتاب مازال مخطوطاً وقد صنع مثلما صنع السيوطي ووعد بإخراج كتاب فذ في هذا المجال ولكنه لم يصنع شيئاً إلاَّ أنه جمع بين كتابي الواحدي والسيوطي وجرد أسانيدهما.

أولاً - تعريف أسباب النزول :

من المسلمات والبدهيات أن من القرآن ما نزل ابتداء، ومنه ما نزل عقب حادثة أو جواباً عن سؤال، وأكثر القرآن نزل(ابتداء)ليعالج الأوضاع والعادات الفاسدة القائمة

(١) سورة النساء : آية ٧٨ .
(٢) المخطوطة موجودة في المكتبة الأزهرية وهي بحالة متوسطة.

آنذاك ، فليست كل آية لها سبب ، وليس كل ما ذكر من الأسباب سبباً في الحقيقة ، فسبب النزول [هو الحادثة التي وقعت في عهد الرسول ﷺ ونزل بشأنها قرآن أو الأسئلة والاستفسارات الموجهة للنبي ﷺ وجاءت الآيات مجيبة عنها ، وأحسن تعريف لذلك ما ذكره السيوطي قائلاً :

[**والذي يتحرر في أسباب النزول أنه مانزلت الآية أو الآيات مبينة لحكمه أيام وقوعه**] ليخرج ما ذكره الواحدي في تفسيره سورة الفيل من أن سببها قصة قدوم الحبشة ، فإن ذلك ليس من أسباب النزول في شيء ، بل هومن باب الإخبار عن الوقائع الماضية كذكر قصة نوح وعاد وثمود وبناء البيت الحرام ونحو ذلك وكذلك ذكره في قوله تعالى ﴿ . . . وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا ﴿١٢٥﴾ ﴾[1] .

سبب اتخاذه خليلاً فليس ذلك من أسباب نزول القرآن كما لا يخفى[2] .

فعند النظر في الرواية التي ذكرت أنها سبب النزول يجب أن يُتحقَّق من مزامنة نزول الآية مع حدوث القصة أو الحادثة أو السؤال فإن تزامنت جاز أن تكون سبب نزول وإلاّ فلا .

ثانياً – الألفاظ الدالة على سبب النزول :

جدير بالذكر أن الصحابة رضوان الله عليهم هم الطريق الوحيد لمعرفة أسباب النزول لأنهم هم الذين عاينوا نزول القرآن ، فلا خلاف أنه إذا قال الصحابي سبب نزول الآية كذا فإن هذا يدل صراحة على السبب دون حاجة إلى بيان ، ومثل ذلك إذا أخبر الصحابي عن حادثة أو سؤال وُجِّه إلى النبي ﷺ ثم ذكر بعد ذلك الآيات عقيب الحادثة ، أو إجابة للسؤال فإنه كذلك يعتبر نصاً في سبب النزول .

مثاله ما رواه البخاري عن أنس بن مالك قال : قال أبو جهل : (**اللهم إنْ كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم**) فنزل قوله تعالى :

---

(١) سورة النساء : آية ١٢٥ .

(٢) الإتقان في علوم القرآن ١ / ٤٢ . ولباب النقول في أسباب النزول . ص ٤ .

﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣٣﴾ وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ . . . ﴾[1] .

وهناك ألفاظ وقرائن تدل على سبيل الرجحان على سبب النزول كأن ترد الفاء التعقيبية داخلة على مادة نزول الآية بعد سرد حادثة ما أو بذكر سؤال طرح على رسول الله ﷺ كأن يقول سئل رسول الله ﷺ عن كذا فنزلت . . . .

فهذا يدل على الرجحان لا على سبيل الجزم كما رأى ذلك بعض الباحثين لأنني وجدت آثاراً كذلك ولم تدل على السبب . ويستوي في ذلك أن يكون السؤال الذي نزلت الآيات بسببه متصلاً بأمر مضى كقوله تعالى :

﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ . . . ﴾[2] .

أو بأمر حاضر كقوله :

﴿ يَسْـَٔلُكَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَٰبًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ . . . ﴾[3] .

فنزلت في اليهود قالوا للنبي ﷺ إن كنت نبياً فأتنا بكتاب جملة من السماء كما أتى موسى .

أو بأمر مستقبل نحو قوله تعالى : ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا . . . ﴾[4] .

كمالا ينبغي أن يفهم أن كل سؤال ورد في القرآن واجيب عنه ، يدل على سبب النزول ، فقد ورد لفظ يسألونك في أثني عشر موضعاً ولم يثبت لأكثرها سببٌ للنزول ، وإن حاول بعض المفسرين أن يتمحل لها سببا وأتى بما لا طائل تحته .

بقي تحقيق القول فيما إذا قال الصحابي : نزلت هذه الآية في كذا وهل يدل ذلك على سبب ؟ .

---

(١) سورة الأنفال : آيتان ٣٣ - ٣٤ .

(٢) سورة الكهف : آية ٨٣ .

(٣) سورة النساء : آية ١٥٣ .

(٤) سورة الأعراف : آية ١٨٧ .

نقل السيوطي عن ابن تيمية أنه قال : قولهم نزلت هذه الآية في كذا يراد بها تارة سبب النزول ، ويراد به تارة أن ذلك داخل في الآية وإن لم يكن السبب ، كما نقول عنى بهذه الآية كذا [1] ، فهي تحمل على التفسير إن ذُكر فيها معنى تدل عليه الآية ، وتحمل على بيان سبب النزول إن ذكر فيها ما دعا إلى نزولها .

مثال ذلك قوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا ضَرَبْتُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُواْ وَلَا تَقُولُواْ لِمَنْ أَلْقَىٰٓ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَٰمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ... ﴾ [2] .

فإنه إذا قيل نزلت هذه الآية في نفر من أصحاب النبي ﷺ مر بهم رجل من سليم ، وهو يسوق غنماً له ، فسلم عليهم ، فقالوا ما سلم علينا إلاَّ ليتعوّذ منا ، فعمدوا إليه فقتلوه وأتوا بغنمه إلى النبي ﷺ ... الحديث [3] . كان ذلك بياناً لسبب نزولها ، وإذا قيل نزلت في معاملة الناس بمقتضى ظواهرهم كان تفسيراً لها وبياناً لمضمونها ، ولغلبة استعمال هذه العبارة في التفسير قال الزركشي في البرهان : قد عرف من عادة الصحابة والتابعين أن أحدهم إذا قال نزلت هذه الآية في كذا فإنه يريد بذلك أن هذه الآية تتضمن هذا الحكم ، لا أن هذا كان السبب في نزولها .

وما أكثر الآيات القرآنية المتضمنة للأحكام وجعلت هذه الأحكام أسباباً ومن أراد معرفة ذلك فلينظر إلى تفسير الآيات :

﴿ ... وَلَا تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ ... ﴾ [4] .

وقوله تعالى : ﴿ ۞ وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةً ... ﴾ [5] .

ثالثاً – طريق معرفة أسباب النزول :

يقول الواحدي في مقدمة كتابه : [**كل آية لها سبب مقول مروي**

(١) مقدمة في أصول التفسير ص ٤٨ ، تحقيق د. عدنان زرزور ، والإتقان ١ / ٨٩ .
(٢) سورة النساء : آية ٩٤ .
(٣) ذكره السيوطي في اللباب وقال رواه البخاري والترمذي والحاكم وغيرهم .
(٤) سورة البقرة : آية ١٩٥ .
(٥) سورة التوبة : آية ١٢٢ .

منقول] [1] . وعلى هذا فلا يحل القول في أسباب النزول إلاَّ بالرواية والسماع ممن شاهدوا التنزيل ، ووقفوا على الأسباب وبحثوا عن علمها وجدّوا في الطلاب ، وقد ورد الشرع بالوعيد للجاهل ذي العثار في هذا العلم بالنار لما رواه ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : «اتقوا الحديث إلاَّ ما علمتم فإنه من كذب عليّ فليتبوأ مقعده من النار ومن كذب على القرآن من غير علم فليتبوأ مقعده من النار» [2] .

والسلف رحمهم الله كانوا أبعد الغاية احترازاً عن القول في نزول الآية ، فلا يقبلون إلاَّ ممن شاهدوا التنزيل كالصحابة رضوان الله عليهم ، فإن قولهم في سبب النزول هو مما لا مجال للرأي فيه فهو بمثابة المرفوع فإن صح النقل عنه وجب الأخذ به ، وهو كالحديث المسند ، أما إذا لم يجزم الصحابي كأن قال أحسب هذه الآية نزلت في كذا فلا يعد هذا سبباً .

أما قول التابعي في سبب النزول إذا نقل أو سمع الصحابي فيجري فيه من المذاهب ما يجري في الأحاديث المرسلة عند علماء مصطلح الحديث والأصول ، أما قولهم بالاجتهاد فلا يصح قال ابن سيرين : (سألت عبيدة عن آية من القرآن ، فقال : اتق الله وقل سداداً ذهب الذين يعلمون فيما أنزل القرآن) [3] .

وليس لأحد بعد عصر التابعين أن يخترع سبباً للنزول .

قال الواحدي [4] ، أما اليوم : فالواحد يخترع شيئاً ويختلق إفكاً وكذباً ملقياً زمامه إلى الجهالة غير مفكر في الوعيد للجاهل سبب الآية .

فوائد أسباب النزول :

لا شك أن لمعرفة سبب النزول فوائد لا يستغني عنها أي مفسر لكتاب الله كما قال الواحدي : ولا يمكن معرفة تفسير الآية دون الوقوف على قصتها وبيان سبب نزولها ، أو كما قال ابن دقيق العيد : **بيان سبب النزول طريق قوي في فهم معاني القرآن** [5] .

(١) أسباب النزول ص ١٧ .
(٢) أسباب النزول ص ١٧ .
(٣) أسباب النزول ص ١٧ .
(٤) أسباب النزول ص ١٧ ، والإتقان ١ / ٣١ .
(٥) مقدمة في أصول التفسير ، لابن تيمية ص ٤٨ .

من هذه الفوائد :

١ - تخصيص الحكم بالسبب عند من يرى أن العبرة بخصوص السبب لا بعموم اللفظ.

٢ - ومن الفوائد دفع توهم الحصر عما يفيد بظاهره الحصر وقد مثلوا على ذلك بمثال وهو قول الشافعي كما أورده الزركشي في معنى قوله تعالى : ﴿ قُل لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ ... ﴾[1].

قال: إن الحصر في الآية ليس مراداً، ذلك أن الكفار لما حرموا ما أحل الله وأحلوا ما حرم الله، وكانوا على المضادة والمحادة، جاءت الآية بهذا الحصر الصوري مشادة لهم ومحادة من الله ورسوله، لا قصداً إلى حقيقة الحصر، نازلة منزلة من يقول : لا تأكل اليوم حلاوة، فتقول : لا آكل اليوم إلاّ الحلاوة، والغرض المضادة لا النفي والإثبات على الحقيقة[2].

٣ - معرفة أن سبب النزول غير خارج عن حكم الآية إلاّ إذا ورد نص مخصص لها.

وهي من القضايا الأصولية التي ذكرها الآمدي والشاطبي وغيرهم ودللوا عليها كقاعدة أصولية تتعلق بأسباب النزول، وهذه الفائدة من الأمور المجمع عليها عند من يعتد بقولهم في علم الأصول وهي صحيحة ولا كلام، بل بدهية أن سبب النزول غير خارج عن حكم الآية.

٤ - أن السبب يفيد وجه الحكمة الباعثة على تشريع الحكم.

٥ - ومجمل القول أن فوائد معرفة أسباب النزول كثيرة ولا غنى عنها، فهي تفيد في فهم النص القرآني بكل أبعاده فتزيل المشكل وتوضح المبهم، وتدفع الغموض وتطرد الشبه، وترفع الخلاف، فهي أوضح سبيل وأقصره لفهم معاني الآيات التي ورد لها سبب.

وإضافة إلى ما ذكر تفيد الزمان والمكان الذي نزلت فيه الآية فتُميز المكي من المدني وتفصل الدعوى في الناسخ والمنسوخ حين يعرف المتقدم من المتأخر، وإلى جانب هذا كله

(١) سورة الأنعام : آية ١٤٥.
(٢) البرهان في علوم القرآن ١ / ٣١ ٣٢.

فإنها تعطي صورة واضحة عن مراحل الدعوة الإسلامية في سيرها ومعالجتها للأحداث بوسائل مكافئة في كل حالة من الحالات، وهذه فائدة لا تعدلها فائدة لمن تأمل فيها في رسم السياسة الداخلية والخارجية للدولة الإسلامية عبر مراحلها الزمنية في عهد النبي ﷺ.

نعم إن علم الأسباب في النزول يبين الفهم الصحيح للآية ولا يزول الإشكال إلاّ بذكره، وقد توافقت كتب علوم القرآن قديماً وحديثاً على ذكر هذه الأمثلة لتبين أن العلم بالسبب يورث العلم بالمسبب ويضبطنا من الوقوع في الزلل.

من ذلك ما ورد في قوله تعالى :

﴿ وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾ ﴾[1].

فإننا لو تركنا لظاهر الآية لاقتضى أن المصلي لا يجب عليه استقبال القبلة لا سفراً ولا حضراً، وهو خلاف الإجماع، ولكن بمعرفة سبب نزولها يتبين لنا أن هذا المفهوم خاطئ، فقد روي في سبب نزولها أن القبلة عميت على قوم فصلوا إلى أنحاء مختلفة، فلما أصبحوا تبين خطؤهم، فعذرهم الله بها، فالآية ترفع الحرج عمن صلّى باجتهاده إلى جهة ما يظنها القبلة، فبان له الخطأ بعد ذلك وكأن الله سبحانه يقول لا حرج فالجهات كلها لله، وحيثما توجهتم فثم وجه الله[2].

ومن ذلك قوله تعالى :

﴿ ۞ إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا ... ﴾[3].

فقد فهم عروة بن الزبير رضي الله عنه أن الآية نزلت لبيان عدم فرضية السعي بين الصفا والمروة فإن عبارة «لا جناح في كذا» فلا يستعمل في الدلالة على وجوب الصلاة والزكاة مثلاً «لا جناح في أداء الصلوات الخمس أو في إخراج الزكاة، وإنما تصلح هذه العبارة للتعبير عن الإباحة لأن هذا المعنى هو مدلولها اللغوي» :

(١) سورة البقرة : آية ١١٥.
(٢) الترمذي ٤ / ٢٧٣. ونيل الأوطار ٢ / ٧٥.
(٣) سورة البقرة : آية ١٥٨.

﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ . . . ﴾[1].

﴿ . . . فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ . . . ﴾[2] ﴿ . . . فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَن يَتَرَاجَعَا إِن ظَنَّا أَن يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ . . . ﴾[3].

ومن هنا فهم عروة أن السعي بين الصفا والمروة ليس بفرض، لأن عبارة الآية تدل بمقتضى الاستعمال اللغوي على الإباحة، والإباحة تنافي الوجوب لأن الإباحة لا إلزام فيها، بخلاف الوجوب. ولولا قوله تعالى ﴿ . . . مِن شَعَائِرِ اللَّهِ . . . ﴾[4]. لما فهم من الآية أن السعي عمل مرغب فيه شرعاً، فتدل الآية بمجموعها على الترغيب فيه وامتناع وجوبه، ولكن من يقف على سبب نزول الآية يعرف أنها لا تنافي وجوب السعي بين الصفا والمروة، فقد روى أن فريقاً من الصحابة تَحَرَّجوا من الطواف بهما لأن أهل الجاهلية كانوا يفعلونه، وكانوا في ترددهم بين الصفا والمروة يتمسحون بصنمين كانا عليهما، فتأثموا من عمل هو من أعمال الجاهلية وكان يقترن به عمل من أعمال الوثنية فنزلت.

وروي أن الأنصار كانوا في الجاهلية يحجون إلى الصنم الذي يقال له مناة، ولا يتحللون من الطواف بهما لأنه لم يكن ذكر في القرآن في ذلك الوقت. وكان الذي ذكر هو الطواف بالبيت العتيق فنزلت[5].

ويجمع بين هذه الروايات كلها بأنها نزلت عقب تأثم الجميع، والمعقول أن هذا التأثم إنما وقع منهم قبل أن يسمعوا من رسول الله ﷺ شيئاً في طلب السعي، وإلاَّ فحينئذ لا يعقل أن يتأثموا، فجاءت عبارة الآية على ما كان في نفوسهم من التأثم تبين لهم أن هذا الأمر لا إثم فيه ولا جناح، فالمقصود منه إزالة ما كان في نفوسهم من التأثم لا نفي الوجوب، ولكن عروة لم يعرف سبب النزول ففهم أن الآية تنافي الوجوب.

(١) سورة البقرة: آية ١٩٨.
(٢) سورة البقرة: آية ٢٢٩.
(٣) سورة البقرة: آية ٢٣٠.
(٤) سورة البقرة: آية ١٥٨.
(٥) أنظر هذه الروايات في فتح الباري ٣ / ٣١٥.

وقد دلت السنَّة على وجوبه. وقد عرف عروة من خالته عائشة سبب نزولها ولما عرف اهتدى إلى المقصود منها.

وكذلك قوله تعالى: ﴿ وَاللَّائِي يَئِسْنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِن نِّسَائِكُمْ إِنِ ارْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ وَاللَّائِي لَمْ يَحِضْنَ . . . ﴾[1].

فقد أشكل على بعض الأئمة معنى هذا الشرط حتى قال الظاهرية: إن اليائسة لا عدة عليها إذا لم ترتب، وقد بين سبب النزول المراد من هذا الشرط، فقد أخرج الحاكم عن أبي بن كعب من أنه لما نزلت الآية التي في سورة البقرة في عدد النساء، قالوا قد بقيت عددٌ لم تذكر، وهي عددُ الصغار والكبار فنزلت[2]. فبين سبب النزول أن المعنى إن ارتبتم في حكمهن فعدتهن ثلاثة أشهر، والذين لم يقفوا على سبب نزول الآية فهموا أن المعنى إن ارتبتم في حيضهن، فأشكل عليهم معناها، حتى قال بعضهم بأن اليائسة لا عدة عليها.

والأمثلة التي تبين فائدة أسباب النزول كثيرة اكتفينا بالمذكور واقتصرنا على الصحيح منها.

وتجدر الاشارة إلى أن معرفة بعض أسباب النزول قد لا يُقدم ولا يُوخر في قليل أو كثير كأن تنزل آية في زيد أو عمرو من الناس، فالأمر سواء.

* * * * *

﴿ حالات تعدد روايات أسباب النزول ﴾

هذا بحث يشتمل على صور كثيرة نبدأ بالصور المتفق عليها ثم نثني بالمختلف فيها.

١ - لا خلاف بين العلماء أنه إذا تعددت أسباب النزول وكانت رواية صحيحة وأخرى ضعيفة فإنه يقدم الصحيح على الضعيف، من ذلك ما روي في أسباب نزول سورة: ﴿ وَالضُّحَىٰ ﴿١﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ﴿٢﴾ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴿٣﴾ ﴾[3].

(١) سورة الطلاق: آية ٤.
(٢) نقل ذلك السيوطي عن الحاكم.
(٣) سورة الضحى: آيات ١ - ٣.

فقد روى البخاري أن رسول الله ﷺ اشتكى فلم يقم ليلة أو ليلتين فأتته امرأة فقالت : يا محمد ما أرى شيطانك إلاّ قد تركك، فأنزل الله سورة الضحى ...[1].

أما الطبراني فقد روى في سبب نزول السورة، عن حفص بن ميسرة عن أمه عن أمها وهي خادمة رسول الله ﷺ - أن جرواً دخل بيت النبي ﷺ فدخل تحت السرير فمات، فمكث النبي ﷺ أربعة أيام لا ينزل عليه الوحي، فقال : يا خولة ما حدث في بيت رسول الله؟ جبريل لا يأتيني، فقلت في نفسي لو هيأت البيت وكنسته، فأهويت بالمكنسة تحت السرير، فأخرجت الجرو، فجاء النبي ﷺ ترعد لحيْتُهُ، وكان إذا نزل عليه أخذته الرعدة، فأنزل الله والضحى والليل ... السورة ...

قال ابن حجر : قصة إبطاء جبريل بسبب الجرو مشهورة ولكن كونها سبب نزول الآية غريب وفي إسناده من لا يعرف فالمعتمد ما في الصحيح[2].

(٢) ولا خلاف أيضاً إذا كانت الروايات في أسباب النزول صحيحة وإحداها أرجح من الأخرى بوجه من وجوه الترجيح أخذ بالأرجح وترك المرجوح، مثال ذلك :

ما رواه البخاري عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : كنت أمشي مع النبي ﷺ بالمدينة وهو يتوكأ على عسيب، فمر بنفر من اليهود، فقال : بعضهم لو سألتموه، فقالوا، حدِّثنا عن الروح فقام ساعة ورفع رأسه، فعرفت أنه يوحى إليه حتى صعد الوحي، ثم قال :

﴿ ... قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾ ﴾[3].

أما الترمذي فقد صحح عن ابن عباس قوله إن قريشاً قالت لليهود أعطونا شيئاً نسأل هذا الرجل، فقالوا: اسألوه عن الروح، فسألوه فأنزل الله :

﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى ... ﴾ الآية[4].

فالروايتان صحيحتان، ولكن رواية البخاري أصح سنداً ودراية، لأن البخاري رواها

(١) رواه البخاري في صحيحه . كتاب تفسير القرآن . سورة (والضحى).
(٢) الإتقان ١ / ٢٢.
(٣) سورة الإسراء : آية ٨٥، وأنظر صحيح البخاري . كتاب تفسير القرآن . باب (ويسألونك عن الروح).
(٤) سنن الترمذي . كتاب تفسير القرآن ٥ / ٣٠٤ ح ٣١٤.

عمن شاهد القصة وعاينها وهو ابن مسعود، أما الترمذي فروايته لا ترجح على رواية البخاري سنداً، وابن عباس الذي رويت عنه الرواية لم يشاهد مثلما شاهد ابن مسعود الذي كان حاضر القصة[1].

٣ - يذكر العلماء حالة تساوي روايات النزول في الصحة، ولست أرى لهذا النوع وجوداً ولا دليلاً، ووجدت في حديثهم اضطراباً إذ يلجأون في هذه الحالة إلى تداخل هذه الروايات، ويجعلونها سبباً واحداً إذا كان زمانها متقارباً، أو يقولون بتعدد نزول الآية مرات متعددة إذا كان الزمان متباعداً حتى زعموا أن بعض الآيات قد نزلت ثلاث مرات.

أما حالة تداخل الروايتين وجعلهما سبباً واحداً، فيمثلون لهذه الحالة بما روي في سبب نزول آيات اللعان، فقد أخرج البخاري من طريق عكرمة عن ابن عباس أن هلال بن أمية قذف امرأته عند النبي ﷺ بشريك بن سمحاء . فقال النبي : «البينه أو حدٌ في ظهرك» فقال يا رسول الله : (إذا رأى أحدنا رجلاً ينطلق يلتمس البينة؟ فأنزل عليه :

﴿ وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَٰجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَآءُ إِلَّآ أَنفُسُهُمْ فَشَهَٰدَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٦﴾ وَٱلْخَٰمِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كَانَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٧﴾ وَيَدْرَؤُا۟ عَنْهَا ٱلْعَذَابَ أَن تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٨﴾ وَٱلْخَٰمِسَةَ أَنَّ غَضَبَ ٱللَّهِ عَلَيْهَآ إِن كَانَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٩﴾ ﴾[2].

وأخرج الشيخان عن سهل بن سعد قال : جاء عويمر إلى عاصم بن عدي فقال : اسأل رسول الله ﷺ أرأيت رجلاً وجد مع امرأته رجلاً يقتله، أيقتل به؟ أم كيف يصنع؟ فسأل عاصم رسول الله ﷺ فعاب المسائل، فأخبر عاصم عويمراً فقال : والله لآتين رسول الله ﷺ فلأسألنه فأتاه فقال : «إنه قد أنزل فيك وفي صاحبتك قرآناً» الحديث.

جمع بينهما بأن أول من وقع له ذلك هلال، وصادف مجيء عويمر أيضاً، فنزلت في شأنهما معا[3].

هذا الرأي فيه نظر، إذ المتأمل لنصوص الحديثين يجد القول الحق في أن سبب النزول هو ما روي بشأن هلال بن أمية لوجود قرائن في متن الحديث، فهذان الحديثان وإن

(١) انظر البرهان ١ / ٣٠.
(٢) سورة النور : آيات ٦ - ٩.
(٣) صحيح مسلم ١٠ / ١٢٠، والإتقان ١ / ٩٥، ومناهل العرفان ص ١١٢.

تساويا صحة في السند إلاَّ أن متن كل منهما يختلف عن الآخر مما جعل بعض العلماء يعتمد أن سبب النزول الوحيد للآية هو ما روي بشأن هلال لوجود قرائن تدل على ذلك.

ومن هذه القرائن أن النبي ﷺ حين أتاه هلال بن أمية - بنفسه - قاذفاً زوجته، قال له: «البينة أو حد في ظهرك» لأن الوحي لم ينزل بعد في حكم اللعان، لذا لم يبق إلاَّ أن يطبق عليه النبي ﷺ حد القذف كما ورد في الآية السابقة نزولاً لهذه الآية [1]، وهذا يلزمه بتطبيق حد القذف عليه، ولم يعفه من ذلك إلاَّ نزول آيات اللعان في حقه.

أما في قصة عويمر فإن النبي ﷺ حين سأله عويمر لم يقل النبي ﷺ له: «البينة أو حد في ظهرك» بل قال له: ﴿قد أنزل الله فيك وفي صاحبتك قرآناً﴾. فلم يتوقف الرسول ﷺ في بيان حكمه.

يقول صاحب معاني القرآن: وقد يذكرون حادثة تحققت في تلك الأيام المباركة واستنبط النبي ﷺ حكمها من آية قرأها في ذلك الباب فتراهم يقولون بعد ذلك: إن الآية نزلت في كذا وربما قالوا: فانزل الله قوله كذا فكأنه إشارة إلى أنه من استنباطه عليه الصلاة والسلام. ولعل هذا ما جعل بعض العلماء يجزم أن قصة هلال بن أمية هي السبب الوحيد لوجود قرينة تدل على ذلك، وينفي أن تكون قصة عويمر سبباً.

وعلى أية حال فهذا الخلاف لا يترتب عليه أثر مفيد فسواء أتداخلت الروايتان وكانتا سبباً للنزول أم كانت قصة هلال بن أمية هي السبب الوحيد.

٤ - أما حالة تعدد الروايات في أسباب النزول التي حكموا فيها بتكرار نزول الآية لتباعد أزمانهما فيمثلون لهذه الحالة بما أخرجه البيهقي والبزار عن أبي هريرة أن النبي ﷺ وقف على حمزة حين استشهد، وقد مثل به، فقال: «لأمثلنَّ بسبعين منهم مكانك». فنزل جبريل والنبي ﷺ واقف بخواتيم سورة النحل ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ..﴾ [2].

(١) والآية السابقة هي قوله تعالى «والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فأجلدوهم ثمانين جلدة»... الآيات. الآية ٤ من سورة النور.

(٢) سورة النحل: آية ١٢٦.

وبما أخرجه الترمذي والحاكم عن أبي بن كعب قال: لما كان يوم أحد أصيب من الأنصار أربعة وستون ومن المهاجرين ستة منهم حمزة فمثلوا بهم. فقال الأنصار: لئن أصبنا منهم يوماً مثل هذا لنُربينَّ عليهم، فلما كان يوم فتح مكة أنزل الله: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ..﴾ فظاهر تأخير نزولها إلى يوم فتح مكة، وفي الحديث المتقدم ما يفيد نزولها يوم أحد.

وهناك رواية ثالثة بأنها نزلت في مكة قبل الهجرة.

قال ابن الحصار: ويجمع بينهما أنها نزلت في مكة قبل الهجرة مع السورة لأنها مكية، ثم ثانياً بأحد، ثم ثالثاً يوم الفتح تذكيراً من الله لعباده.

كما أن الزركشي قد ذكر نحو قوله إذ يقول: (وقد ينزل الشيء تعظيماً لشأنه، وتذكيراً عند حدوث سببه خوف نسيانه) [1].

فهذه الأقوال لا يسندها دليل من الشرع أو العقل، وإذا ناقشنا المثال المذكور فإننا نقول إن رواية البيهقي فيها مقال ففي إسنادها «صالح بن بشير المري» وهو ضعيف عند الأئمة، قال البخاري عنه إنه منكر الحديث، وعلى هذا فرواية الترمذي أصح منها [2].

قال القرطبي إن نزول هذه الآيات في أحد مما أطبق عليه جمهور المفسرين ثم قال: إن هذه الآية مدنية نزلت في شأن التمثيل بحمزة في يوم أحد ووقع ذلك في صحيح البخاري وفي كتاب السير، وذهب النحاس إلى أنها مكية، والمعنى متصل بما قبلها في المكي اتصالاً حسناً، لأنها تتدرج في الرتب من الذي يدعي ويعظ، إلى الذي يجادل، إلى الذي يجازي على فعله، ولكنه ما روى الجمهور أثبت ... [3]. اهـ. القرطبي.

* * * *

(١) البرهان في علوم القرآن ١ / ٢٩.

(٢) انظر تفسير ابن كثير لهذه الآية وسنن الترمذي ٤ / ٣٦٢، مباحث في علوم القرآن، للدكتور القصبي زلط ص ٦٩.

(٣) تفسير القرطبي لسورة النحل ١٠ / ٢٠١.

الفصل الرابع

جمع القرآن الكريم

المبحث الأول : الجمع في عهد النبي ﷺ .

المبحث الثاني : الجمع في عهد أبي بكر الصديق . رضي الله عنه

المبحث الثالث : الجمع في عهد عثمان . رضي الله عنه

المبحث الرابع : ترتيب الآيات والسور القرآنية .

المبحث الخامس : رسم المصحف «الرسم القرآني أو العثماني» .

جمع القرآن الكريم

تمهيد :

المراد بجمع القرآن الكريم حفظه في الصدور وكتابته في السطور ، وقد تحقق جمع القرآن بنوعيه حفظاً وكتابة في جميع العهود .

ففي عهد النبي ﷺ تواتر حفظه في الصدور ، كما تمت كتابته كلما نزلت آية من الآيات دعا من يكتب .

وفي عهد أبي بكر جمع أوراق القرآن وما كتب في مكانٍ واحد .

وقد تجوز العلماء فى إطلاق جمع القرآن في عهد عثمان الذي أمر بكتابته ونسخه .

ومازال جمع القرآن - حفظاً وكتابة - محققاً وسيبقى كذلك إلى قيام الساعة وصدق الله العظيم : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿٩﴾ ﴾[1] .

* * * *

(١) سورة الحجر : آية ٩ .

المبحث الأول

الجمع في عهد النبي ﷺ

لقد جمع القرآن في عهد النبي ﷺ حفظاً وكتابة، أما حفظه في الصدور فقد تجلى في حفظ النبي ﷺ لهذا القرآن، فقد كان يتشوق ويتلهف لنزول الوحي، فما إن ينزل بالآيات إلاَّ ويعجل النبي ﷺ بحفظها لذا طمأنه الله سبحانه وأرشده إلى عدم الإسراع والتعجل بالقرآن قال تعالى: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴿١٩﴾﴾[1].

وقال تعالى: ﴿... وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ ...﴾[2].

ومن هنا كان ﷺ جامع القرآن في قلبه الشريف، وسيد الحفاظ في عصره المنيف، ومرجع المسلمين في كل ما يعنيهم من أمر القرآن وعلوم القرآن، وكان ﷺ يقرؤه على الناس على مكث، كما أمره مولاه، وكان جبريل يعارضه إياه في كل عام مرة، وعارضه إياه في العام الأخير مرتين.

قالت عائشة وفاطمة رضي الله عنهما سمعنا رسول الله ﷺ يقول: «إن جبريل كان يعارضني القرآن في كل سنة مرة وأنه عارضنا العام مرتين ولا أراه إلاَّ حضر أجلي»[3].

أما الصحابة رضوان الله عليهم فقد أخذ القرآن قلوبهم فأخذوا يتسابقون في حفظه - أحيوا ليلهم وسمع لبيوتهم في غسق الدجى كدوي النحل بالقرآن. بل عرفت منازلهم من سماع تلاوتهم للقرآن، قال رسول الله ﷺ: «إني لأعرف أصوات رفقة الأشعريين بالقرآن حين يدخلون بالليل، وأعرف منازلهم من أصواتهم بالقرآن بالليل، وإن لم أر

(١) سورة القيامة.
(٢) سورة طه: آية ١١٤.
(٣) مناهل العرفان، ١/ ٢٣٤.

منازلهم حين نزلوا بالنهار»، هذا ليلهم، أما نهار الصحابة في المسجد، فكان يسمع لهم ضجة بتلاوة القرآن حتى أمرهم الرسول ﷺ بأن يخفضوا أصواتهم لئلا يتغالطوا، ومن هنا كان عدد الحفاظ من الصحابة رضوان الله عليهم كثيراً، أشهرهم الخلفاء الأربعة والعبادلة وعمرو بن العاص وابن الزبير ومعاوية وأمهات المؤمنين عائشة وحفصة وأم سلمة، وغيرهم من المهاجرين، ويكفي أن نعلم من كثرتهم أنه قتل منهم في يوم بئر معونة سبعون، ويوم اليمامة ضعفهم أي أربعون ومائة[1].

أما الحفظة من الأنصار فهم كثيرون أشهرهم: أبي بن كعب، وزيد بن ثابت، ومعاذ بن جبل، وعبادة بن الصامت، وأبو الدرداء، وأبو أيوب الأنصاري، وأبو زيد (وهو قيس بن السكن).

يتضح لنا أن الحفاظ كثيرون، وقد زادوا عن حد التواتر، ومع ذلك فقد أثار أعداء الإسلام - قديماً وحديثاً - شبهة مفادها أن الحفظة من الصحابة لا يتجاوز عددهم أصابع اليد الواحدة. وتمسكوا بأثر رواه البخاري وغيره، وظنوا أن هذا مستمسك لهم وما هو بذلك؛ وقد رد علماؤنا كيدهم إلى نحورهم.

أما الأثر فما ورد في صحيح البخاري عن أنس بن مالك - رضي الله عنه - أنه قال: (مات النبي ﷺ ولم يجمع القرآن غير أربعة: أبو الدرداء، ومعاذ بن جبل، وزيد بن ثابت، وأبو زيد)[2]. فقد زعموا أن هؤلاء الاربعة هم الحفظة ولا أحد غيرهم ظناً منهم أن الحصر في هذا الأثر حصر حقيقي.

والواقع أن هذا الحصر نسبي لا حقيقي ويدلنا على ذلك ما رواه أنس بن مالك نفسه وقد سأله قتادة عن جمع القرآن على عهد رسول الله ﷺ فقال: (أربعة كلهم من الأنصار: أبي بن كعب، ومعاذ بن جبل، وزيد بن ثابت، وأبو زيد).

فقد ذكر في هذه الرواية أربعة، غير أنه ذكر أبيّ بن كعب بدلاً من أبي الدرداء في الرواية الأولى. وهو صادق في كلتا الروايتين لأنه لا يعقل أن يكذب نفسه، فتعّين أنه يريد

(١) هذه الأسماء قد وردت في أحاديث صحيحة.
(٢) صحيح البخاري. كتاب فضائل القرآن، باب القراء من أصحاب النبي ﷺ.

من الحصر الذي أورده الحصر الإضافي، فمرة ذكر أبا الدرداء، ومرة ذكر أبيّ بن كعب، وهذا التوجيه وإن كان بعيداً، إلاّ أنه يتعين المصير إليه جمعاً بين هاتين الروايتين، وبينهما وبين روايات ذكرت غير هؤلاء. ومن هنا قال الماوردي: لا يلزم من قول أنس رضي الله عنه: (لم يجمعه غيرهم). أن الواقع كذلك في الأمر نفسه، لأنه لا يمكن الإحاطة بذلك مع كثرة الصحابة وتفرقهم في الأمصار، ولم يتم له ذلك إلاّ إذا كان قد لقي كل واحد منهم، وأخبر عن نفسه أنه لم يكمل له جمع القرآن في عهد النبي ﷺ، وهذا في غاية البعد في العادة، وكيف يكون الواقع ما ذكر وقد جاء في صحيح البخاري أن النبي ﷺ قال: «خذوا القرآن عن أربعة: عن عبد الله بن مسعود، وسالم، ومعاذ بن جبل، وأبي بن كعب». والأربعة المذكورون منهم اثنان من المهاجرين وهما الأولان، واثنان من الأنصار وهما الأخيران. اهـ.

ولعل مراد الماوردي بهذا نفي الحصر الحقيقي وتوجيه الحصر الإضافي، ويؤكد ذلك حديث آخر رواه أبو داود عن محمد بن كعب القرظي قال: (جمع القرآن على عهد رسول الله ﷺ خمسة من الأنصار: معاذ بن جبل، وعبادة بن الصامت، وأبي بن كعب، وأبو الدرداء وأبو أيوب الأنصاري).

وهناك أجوبة كثيرة عن هذه الشبهة وقد أجاب الإمام أبو بكر الباقلاني بأجوبة ثمانية ولكن ابن حجر ضعفها وغيره فندها.

ونكتفي في النهاية بكلمة للمازري حيث يقول: (وقد تمسك بقول أنس عن جماعة من الملاحدة ولا متمسك لهم فيه، فإنا لا نُسلِّم حمْله على ظاهره، ولكن من أين لهم أن واقع الأمر نفسه كذلك؟ لكن لا يلزم من كون كل من الجم الغفير لم يحفظه كله، إلاّ أن يكون حفظ مجموعه من الجم الغفير. وليس من شرط التواتر أن يحفظ كل فرد جميعه، بل إذا حفظ الكل الكل ولو على التوزيع كفى).

ثم قال: قال القرطبي: قد قتل يوم اليمامة سبعون وقتل في عهد النبي ﷺ في بئر معونة مثل هذا العدد، قال: وإنما خص أنس الأربعة بالذكر لشدة تعلقه بهم [1].

(١) الجامع لأحكام القرآن ١ / ٥٧.

هذا عن جمع القرآن حفظا وتلاوة، أما الجمع بمعنى كتابة القرآن وتدوينه فلم تكن عناية النبي ﷺ وأصحابه بحفظ القرآن واستظهاره لتمنعهم من توثيق القرآن بكتابته وتدوينه، فقد اتخذ الرسول ﷺ من أصحابه كتبة للوحي، منهم زيد بن ثابت وأبو بكر وعمر وعثمان وعلي وأبي بن كعب وثابت بن قيس وخالد بن الوليد، إذ كان النبي ﷺ يأمر من حضر منهم بالكتابة لما ينزل عليه من القرآن، فيكتب الكاتب: إما على العسب أو اللخاف أو الرقاع أو قطع الأديم أو عظام الأكتاف والأضلاع [1]. ثم يوضع المكتوب في بيت رسول الله ﷺ وكان مجموعاً في صحف قال تعالى: ﴿رَسُولٌ مِّنَ اللَّهِ يَتْلُوا صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ۝٢﴾ [2].

أي يقرأ قراطيس مطهرة من الباطل، فيها مكتوبات مستقيمة قاطعة بالحق والعدل.

وقال أيضاً: ﴿كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ۝١١ فَمَن شَاءَ ذَكَرَهُ ۝١٢ فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ۝١٣ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ ۝١٤ بِأَيْدِي سَفَرَةٍ ۝١٥ كِرَامٍ بَرَرَةٍ﴾ [3].

أي إن هذه تذكرة مثبتة في صحف مكرمة عند الله، مرفوعة المقدار منزهة عن أيدي الشياطين، قد كتبت بأيدي كتبة أتقياء، وما كتب بالصحف كان مؤلفاً.

روي عن ابن عباس أنه قال: (كان رسول الله ﷺ إذا أنزلت عليه سورة دعا بعض من يكتب، فقال: «ضعوا هذه السورة في الموضع الذي يذكرفيه كذا وكذا».

وعن زيد بن ثابت قال: كنا عند رسول الله ﷺ نؤلف القرآن من الرقاع.

وخلاصة ما تقدم أن القرآن الكريم قد حفظ في صدور الكثير من الصحابة. وقد كتب القرآن كله، فتحقق جمع القرآن في عهد النبي ﷺ حفظاً وكتابة في الصدور وفي السطور، سئل محمد بن الحنفية ما ترك النبي ﷺ فقال: (ماترك إلاّ ما بين الدفتين. أي القرآن).

(١) العسب: بضم العين والسين - جمع عسيب - وهو جريد النخل كانوا يكشفون الخوص ويكتبون في الطرف العريض. اللخاف: بكسر اللام جمع لخفة بفتح اللام وسكون الخاء: وهي الحجارة الرقيقة، قال الخطابي: صفائح الحجارة، والرقاع، جمع رقعه: وقد تكون من جلد أو ورق أو كاغد. والأديم: الجلد. والأكتاف: جمع كتف. وهو عظم عريض يكون في أصل كتف الحيوان كانوا يكتبون فيه لقلة القراطيس عندهم. (انظر القرطبي: ١ / ٥٠) ١١١.
(٢) سورة البينة: آية ٢.
(٣) سورة عبس: آيات ١١ - ١٦.

يتضح مما تقدم ان تواتر القرآن وقطعيته في الحفظ والرواية دون الكتابة التي لم تتواتر كما هو معروف من أمر كتبة الوحي، فكان النبي ﷺ يدعو بعض من يكتب عنده، وربما كتب الواحد والاثنان أو دون العدد الذي يتحقق به التواتر.

* * * *

المبحث الثاني

جمع القرآن في عهد أبي بكر الصديق رضي الله عنه

لم يشعر الصحابة رضوان الله عليهم بعد وفاة النبي ﷺ أنهم في حاجة إلى جمع القرآن في كتاب واحد، حتى كثر القتل في الحفاظ في حروب الردة، فقد استشهد فيها خلق كثير من القراء والحفظة، قيل إنه قتل سبعون وقيل خمسمائة، وأياً كان فإن عدد القتلى قد هال المسلمين، فخشي عمر بن الخطاب من ذلك على ضياع بعض الصحف، ففكر في عرض الأمر على أبي بكر ليقوم بجمع القرآن.

روى البخاري أن زيد بن ثابت رضي الله عنه قال: (أرسل إليَّ أبو بكر بعد مقتل أهل اليمامة فإذا عمر بن الخطاب عنده، قال أبو بكر رضي الله عنه: إن عمر أتاني فقال: إن القتل قد استحرَّ «اشتد» يوم اليمامة بقراء القرآن. وإني أخشى أن يستمر القتل بالقراء بالمواطن، فيذهب كثيرٌ من القرآن، وإني أرى أن تأمر بجمع القرآن. قلت لعمر: كيف نفعلُ ما لم يفعلهُ رسولُ الله ﷺ ؟

قال عمر: هذا والله خيرٌ، فلم يزلْ عمرُ يراجعُني حتى شرح اللهُ صدْري لذلك، ورأيتُ في ذلك الذي رأى عمرُ.

قال زيدٌ: قال أبو بكر: إنَّكَ رجلٌ شابٌ عاقلٌ لا نتهمك، وقد كنت تكتبُ الوحيَ لرسول الله ﷺ، فتتبَّع القرآن فاجمعه، فوالله لو كلفوني نقلَ جبلٍ[1] من الجبال، ما كان أثقل علي مما أمرني به من جمع القرآن، قلت: كيف تفعلون شيئاً لم يفعله رسول الله ﷺ ؟ قال: هو والله خيرٌ، فلم يزلْ أبو بكر يراجعني، حتى شرح صدري للذي شرح له صدْرُ أبي بكر وعمرَ، فتتبَّعْتُ القرآنَ أجمعهُ من العسب واللّخاف وصدور الرجال،

(١) وقد عينت بعض الروايات الجبل بانه جبل أحد، فكان رضي الله عنه يرى نقل جبل أحد من مكان الى مكان أهون عليه من نقل الكتابة من العسب واللخاف والاكتاف والاضلاع والرقاع المختلفة الاجناس والاشكال والالوان الى كتابتها على شئ متجانس متماثل يسهل جمعه وربطه وحفظه في مكان مناسب. وقد تطلب هذا منه جهداً عظيماً في مقارنة المحفوظ بالصدور مع المكتوب في السطور مع طلب الشهادة على كل رقعة انها كتبت بين يدي رسول الله ﷺ حتى يحافظ على الرسم القرآني كما هو، جزى الله زيداً أحسن الجزاء وأجزل له الثواب.

حتى وجدت آخر سورة التوبة مع أبي خزيمة الأنصاري لم أجدها مع أحد غيره :

﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿١٢٩﴾﴾[1] .

فكانت الصحف عند أبي بكر حتى توفاه الله ، ثم عند عمر في حياته ، ثم عند حفصة بنت عمر[2] .

كيفية جمع زيد للقرآن (في عهد أبي بكر) :

يقول زيد نفسه فيما رواه البخاري : (فتتبعت القرآن أجمعه من الرقاع والأكتاف والعسب وصدور الرجال) وهذا يفيد أن طريقة الجمع تعتمد على أمرين :

١ - ما كان محفوظاً في صدور الصحابة .

٢ - ما كان مكتوباً بين يدي رسول الله ﷺ ولا يقبل المكتوب إلاَّ بشهادة عدلين .

روى ابن أبي داود - في كتاب المصاحف - من طريق يحيى بن عبدالرحمن بن حاطب قال : (قدم عمر ، فقال من كان تلقى من رسول الله ﷺ شيئاً من القرآن فليأت به[3] ، فأقبل الناس بما كان معهم وعندهم حتى جمع على عهد أبي بكر في الورق[4] ، فكان أبو بكر أول من جمع القرآن في المصحف) .

وكان زيد - رضي الله عنه - لا يقبل شيئاً مكتوباً حتى يشهد عدلان على أن المكتوب كتب بين يدي رسول الله ﷺ ، ذكر ذلك صاحب الفتح حيث قال : (وعند ابن أبي داود من طريق هشام بن عروة عن أبيه أن أبا بكر قال لعمر ولزيد : اقعدا على باب المسجد ، فمن جاءكما بشاهدين على شيء من كتاب الله فاكتباه .

ونقل السيوطي عن السخاوي[5] أنه قال : (المراد أنهما يشهدان على أن ذلك

(١) سورة التوبة : آيتان ١٢٨ - ١٢٩ .
(٢) صحيح البخاري . كتاب فضائل القرآن . باب جمع القرآن .
(٣) رجاله ثقات مع انقطاعه والحديثان في فتح الباري ٩ / ١١ .
(٤) في المصباح يعني بالورق في الأزمان المتقدمة الجلود الرقاق التي يكتب عليها .
(٥) الإتقان ١ / ٢٣٨ ، والبيان ص ١٧٩ .

المكتوب من الوجوه التي نزل بها القرآن ، أو المراد أنهما يشهدان على أن ذلك المكتوب كتب بين يدي رسول الله ﷺ) قال أبو شامة : (كان غرضهم ألا يكتب إلاَّ من عين ما كتب بين يدي النبي ﷺ) .

يتضح للمتأمل أن الجدير بالقبول هو أن المراد بالشهادة فيهما ، الشهادة على الكتابة بين يدي النبي ﷺ لا الشهادة على القرآنية ، لأن القرآنية لم تكن موضع شك حتى تحتاج إلى شهادة ، لكثرة الحفاظ في ذلك الوقت ، بخلاف الكتابة بين يدي النبي ﷺ فإن كثيراً من الصحابة كانوا يكتبون القرآن لأنفسهم على حسب ما يتيسر لهم ، ولو في غير مجلس النبي ﷺ ويلاحظ أن ما قاله ابن حجر من أنه يجوز أن يكون قد أريد بالشاهدين الحفظ والكتابة ، لا عدلان من الناس يشهدان ، هو احتمال في غاية البعد ، لأن اللفظ متبادر جداً في هذا المعنى دون ما قصه ابن حجر ، والله أعلم .

وبعد فلا يفوتنا أن ندفع الشبهة التي تعلق بها المغرضون في الرواية التي أثبت بها زيد كتابة آية لم يثبتها إلاَّ شاهدان اثنان ، وهذا كافٍ لإثبات عدم التواتر لهذة الآية المفقودة .

نقول : إن هذه الرواية وأمثالها لم تثبتها كتب الصحاح ، وبعض هذه الروايات منقطع كما يقول علماء الحديث ، ولو سلمنا أن هذه الروايات صحيحة ، لما ثبتت الدعوى ، بل على فرض أن زيداً قد أثبتها منفرداً لم يكن ذلك قادحاً في تواتر القرآن ، لأن التعويل في توثيق القرآن إنما هو على الرواية ، والتلقي طبقة عن طبقة إلى رسول الله ﷺ مع تحقيق للتواتر في الرواية دون الكتابة ، بل لو لم يكتب أصلاً ما قدح في تواتره ، حيث نقل سماعاً ومشافهة على سبيل التواتر في كل طبقة من طبقات رواته[1] .

وبعد : هذا معنى جمع القرآن في عهد أبي بكر الذي كان أول من جمع القرآن بعد وفاة النبي ﷺ .

قال عليٌّ رضي الله عنه : أعظم الناس في المصاحف أجراً أبو بكر ، رحمة الله على أبي بكر هو أول من جمع كتاب الله ، ذكر ذلك ابن كثيروقال : إن أبا بكر وضع الصحف

(١) البيان ص ١٨٢ .